ظَاهِرَةُ الإجْمالِ والتّفْصِيلِ فِي الخِطابِ القُرْآنِيِّ (الفاتحة، البقرة، آلعمران، النساء) أنموذجاً

– دراسة تفسيرية بلاغية أسلوبية –

أ.م.د. دريد موسى داخل الأعرجي

جامعة بابل / كلية التربية الأساسية

Drid_mas@yahoo.com

Abbreviation and Giving Details in Quran Explanatory, Rhetorical, Stylistic in An (Alfatiha, Albakara, Al-Emran, and AlNisa'a Surahs)

Asst. Prof. Ph.D. Duraid Musa Dakhil Al-Araji

College of Basic Education/ University of Babylon

Drid_mas@yahoo.com

Abstract

The present study aims at studying abbreviation and giving details in Quran. The study is limited to Alfatiha, Albakara, Al-Emran, and AlNisa'a surahs.

Keywords: abbreviation, details, Quran, surah.

الملخص

احتوى البحث على مقدمة بينت فيه إضاءة على مفردات العنوان وجعلت سورة الفاتحة – كما عليه علماء التفسير والبلاغة – فاتحة لهذا البحث الذي يظم أربع سور من الطوال؛ بوصفها أم القرآن وفاتحة الكتاب، وقسمت الدراسة على أربعة مباحث: أما الأول فقد اشتمل على سورة الفاتحة، ثم المبحث الثاني سورة البقرة، والمبحث الثالث سورة آل عمران، والمبحث الرابع سورة النساء، ثم أبرز النتائج. عن أبي بكر الأنباري أنه قال: (أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر، ويقف جبريل النبي صلى الله عليه وآله على موضع السورة والآيات والحروف. كله من النبي صلى الله عليه وآله فمن قدّم سورة أو أخرها أفسد نظم القرآن).

الكلمات المفتاحية: (الإجمال، التفصيل، الإعجاز، الإيجاز، الإطناب، القرآن، السورة)

المقـدمة

مَنّ الله علينا بنعمة القرآن الهادي إلى الرشد عن طريق آياته المفصّلة، التي جاءت على وجه من البلاغة، لا يذوق طعمها إلا من اغترف من بحر القرآن غرفة، مست شغاف قلبه بلطف، فهذا القرآن العظيم كان وما يزال النبع الصافي الكبير الذي يرده الباحثون للإرتشاف منه برغبة المحب، وطموح المجتهد، ولطالما أحببت الكتابة في بلاغة القرآن العظيم، وهذا الحب لأنال شرف دراسة بلاغة الأساليب القرآنية فوفقني الله تعالى ليقع اختياري على هذا الموضوع الموسوم بـ{ظاهرة الإجمال والتفصيل في الخطاب القرآني (الفاتحة، البقرة، آل عمران، النساء) أنموذجاً} – دراسة بلاغية أسلوبية تفسيرية – لأرتشف من هذا النبع الصافي الأصيل. واحتوى البحث على مقدمة بينت فيه إضاءة على مفردات العنوان وجعلت سورة الفاتحة – كما عليه علماء التفسير والبلاغة – فاتحة لهذا البحث الذي يظم أربع سور من الطوال؛ بوصفها أم القرآن وفاتحة الكتاب، وقسمت الدراسة على أربعة مباحث: أما الأول فقد اشتمل على سورة الفاتحة، ثم المبحث الثاني سورة البقرة، والمبحث الثالث سورة آل عمران، والمبحث الرابع سورة النساء، ثم أبرز النتائج.

ونعني بالدراسة البلاغية دراسة الإجمال والتفصيل وهو مصطلح بلاغي كبير، حيث جاء في مناهل العرفان للزرقاني، عن أبي بكر الأنباري أنه قال: (أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة فكانت السورة تنزل لأمر

يحدث، والآية جواباً لمستخبر، ويقف جبريل النبي صلى الله عليه وآله على موضع السورة والآيات والحروف. كله من النبي صلى الله عليه وآله فمن قدّم سورة أو أخرها أفسد نظم القرآن) (1)

أما الآيات فقد قال الأنباري أيضاً: (انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه في المصاحف كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وآله عن الله تعالى وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، بل كان جبرئيل ينزل بالآيات على الرسول صلى الله عليه وآله ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها ثم يقرؤها النبي صلى الله عليه وآله على المسلمين ويأمر كتّاب الوحي بكتابتها معيّنا لهم السورة التي تكون فيها الآية، وموضع الآية من هذه السورة). فترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وآله وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين فكان أمر الرسول صلى الله عليه وآله – الذي لا ينطق عن الهوى– بأن توضع هذه الآية موضع كذا في سورة كذا وتلك في موضع كذا.

وهذا ما حتّم علينا أن ندرس هذا الموضوع على وفق منهجية مناسبة لوحدة النص وارتباطاته وعلاقاته –كما تظهر ذلك الدراسة– فكانت كل سورة تدرس في مبحث له ارتباطاته مع ما قبله وما بعده مناسباً لمعنى الإجمال والتفصيل الذي هو ظاهرة تشمل القرآن كله وهنا يظهر الإعجاز البلاغي –كما سيتوضح ذلك في البحث– من حيث ارتباط المعاني وما يظهر من علاقات بين الألفاظ في سياق النصوص الطويلة – السور – مع بعضها.

وسُبِقَ هذا الموضوع بما يماثل منهجه فهناك أطروحة دكتوراه موسومة بـ(وجوه التناسب بين سور القرآن الكريم) للباحث أنس عبد العليم حيث اتخذ من أسماء السور مباحث وفصولاً من سورة البقرة إلى آخر سورة في القرآن بين فيها مناسبة الآيات والسور بعضها مع البعض الآخر، وتكلمنا نحن عن الإجمال والتفصيل في أربع سور (الفاتحة) وثلاث سور طوال كأنموذج يدل على هذه الظاهرة البارزة في القرآن العظيم.

وليست الدراسة البلاغية مقتصرة على الإجمال والتفصيل فحسب وإنما ضمت عشرات المصطلحات البلاغية التي لم تأتِ ضمن علم واحد من البلاغة وإنما ضمت العلوم الثلاثة –علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع– والتي جاءت منسجمة مع دراسة الإجمال والتفصيل وإنما أشرت إلى هذا لأن هذه الموضوعات لم يكن لها من فصول ومباحث خاصة بها؛ لأن البحث أخذ منهجاً تفسيرياً بلاغياً آخر.

إذ لم يكن من منهجية هذه الدراسة أن يعين لها فصول بلاغية بحتة كالتشبيه والإستعارة والمجاز وغير ذلك؛ لأنها لا تنسجم إلا ما جاء ضمن مفهوم الاجمال والتفصيل مع منهج هذا البحث، وما جاء منها جاء في مجال سياقه كعلامات واصلة بين النصوص بياناً وإيضاحاً بعد إبهام، وإيجازاً وإطناباً وإطلاقاً وتقييداً، وتكميلاً وتتميما.

وكان من منهج هذا البحث دراسة سورة الفاتحة بوصفها مقدمة للكتاب العزيز مجملة له ثم ظهرت تفصيلات ذلك في سور القرآن بعدها، وكذلك ما جاء من الإستئناف والفصل والوصل والتقديم والتأخير والحذف والذكر والتكرار وغير ذلك، وهذا كله لم يدرس في مباحث خاصة؛ لأنها عملية يتجزأ عندها الموضوع ولا ينسجم ومنهج دراستنا، فحتّم علينا أن ندرس كل سورة وفق مبحث لتتكون سلسلة متواصلة من السور غير منفصلة بأمور فنية بلاغية تفرق أكثر مما تجمع وتجزئ أكثر مما توصل.

وقد اقتضى العنوان أن أنظر في القرآن كله؛ فالموضوع له ارتباط بسور القرآن وآياته من حيث تفصيل الآية لما أجمل قبلها وبيان ما أجمل في سورة وفصِّل في موضع آخر من السورة أو في سورة أخرى، لذلك فلا يمكن أن نجتزئ من القرآن سورا ربما تكون لها علاقة وثيقة بسور أخرى أو آيات أخر لأن القرآن يفسر بعضه بعضا؛ ولكننا اقتصرنا على هذه السور طلباً للاختصار.

---

(1) مناهل العرفان للزرقاني: ص197

والخطاب القرآني صادر من الذات الإلهية لا سبيل للمتلقي على ردّه وإنما لإفهامه بطرق من الكلام بحسب مقتضى الحال. ولغة الخطاب في القرآن الكريم تقتضي معرفتنا بأسلوب هذا الخطاب ومعرفة ترتيب السور وعلاقة هذا مع الإجمال والتفصيل.

إنّ وضع أو ترتيب السور أو جمعها على طريقة ما توحي بأنّ هذا الجمع جاء على وفق سياق يجمعها. وهذا يحتاج إلى بيان ذلك ومعرفة أسبابه ذلك؛ فمعرفة الإجمال والتفصيل بحسب ترتيب سور القرآن هي الطريق الأمثل لذلك؛ لأن ما أجمل من كلام القرآن يجد له دارس القرآن تفصيلاً وبيانا بين دفتي الكتاب المنزل، وإن عنوان الكتاب المنزل (القرآن) يدل على الجمع والقراءة ولابد لهذا الجمع من مقدمة توضح شأنه وتجمل قوله فكانت فاتحة الكتاب مقدمة لهذا القرآن توجز أهدافه وتُجمل مقاصده؛ لتدل على الشمول والإطلاق.

والإجمال هو إيراد الكلام على صورة تحتمل وجوهاً متعددة، أما التفصيل فهو تعيين بعض تلك الوجوه المحتملة أو كلها، كما إنه يميز الشيء من الشيء ويبينه، يقول محمد الشاوش: (أنّ الإجمال والتفصيل ضرب خاص من إدراك الظاهرة، فالظاهرة الواحدة يمكن أن تدرك وتعبر عن إجمالها أو من حيث هي كل، ويعبر عنها المتكلم على ذلك النحو بالصيغة المناسبة للإجمال، كما يمكنه أن يدركها على نحو مفصل معتبراً انقسامها إلى أجزاء، ويعبر عنها على تلك الصورة بالصياغة المناسبة، وقد يكون التفصيل وحده كما يكون الإجمال وحده، وقد يكون أحدهما معاقباً في صورة إجمال بعد تفصيل أو في صورة تفصيل بعد إجمال) [1] ويندرج مصطلح الإجمال والتفصيل ضمن مصطلح الإطناب إذ يقول د. أحمد مطلوب:(يؤتى بالإطناب بطريق الإيضاح بعد الإبهام ليرى المعنى في صورتين مختلفتين أو ليتمكن في النفس فضل تمكن، فإن المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال تشوفت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح) [2]فيتوجه السامع إلى ما يرد بعد ذلك.

والإيضاح بعد الإبهام يمثلان وجهين لمقصد واحد والفرق بينهما من الدقة بمكان، بيد أن خصوصية كل منهما تكمن في أداء الوظيفة السياقية التي تحددها طبيعة النص ونوعه.

وفي معرض كلام ابن رشيق عن البلاغة قال: (إنها وضع الكلام موضعه في طولٍ أو إيجازٍ مع حسن العبارة)[3].

وقد سلك القرآن في خطاب أهل مكة فيقول الزرقاني:(سبيل الإيجاز في خطابه، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور؛ لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسَن، صناعتهم الكلام، وهمتهم البيان، فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب)[1]. في حين يقول د. صبحي الصالح، أن: (الخصائص الموضوعية والأسلوبية في المدينة أصبحت تستدعي التفصيل في التشريع وفي بناء المجتمع الجديد فكان لا بد أن يطنب بعد الإيجاز، ويفسر بعد الإجمال، ويراعي حال المخاطبين في كل آياته وسوره)[2] فمقام الإجمال يباين مقام التفصيل حسب مقتضى الحال.

أما المصادر والمراجع فقد اعتمدت على مجموعة من التفاسير المهمة مثل: الكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للرازي، والبحر المحيط لأبي حيان، ونظم الدرر للبقاعي، ومن كتب المتشابه: درة التنزيل للإسكافي، وأسرار التكرار للكرماني، وملاك التأويل للغرناطي، وأسرار ترتيب سور القرآن للسيوطي، ومن المصادر الحديثة: تفسير ابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والتفسير البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطئ، وعلى طريق التفسير البياني للدكتور فاضل السامرائي، وغيرها كثير كما هو مثبت في قائمة المصادر والمراجع، وإذ خرج البحث على الصورة التي قُدِّم بها فإن الله سبحانه الفضل والمنة، واستغفره تعالى على ما نبا فيه القلم أو أخطأ الفكر والحمد لله أولاً وآخراً الذي بنعمته وفضله تتم الصالحات.

---

(1) أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية،578/1
(2) معجم المصطلحات البلاغية ،228/1
(3) العمدة ،249/1
(1) المناهل 116/1
(2) مباحث في علوم القرآن ص 184

المبحث الأول

سورة الفـــاتحة

بين يدي السورة:

لابد لهذا القرآن العظيم الذي جمع السور على كثرة المعاني والأغراض من مقدمة، تجمل مفصله فكانت سورة الفاتحة عنوان الكتاب يدل على ما فيه بإيجاز، وتلك هي براعة الاستهلال.

يقول القرطبي: (وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل إنّ جميع القرآن فيها)[1] فالقرآن العظيم (بجملته تفسير لسورة الفاتحة بتفصيل مجملها، وكل سورة أخذت معنى منها)[2].

وقال البقاعي: (وكانت سورة الفاتحة أُمّاً للقرآن؛ لأن القرآن جميعه مفصل من مجملها)[3] وابتدئ بالفاتحة؛ لأن (من مقتضيات البلاغة تقديم الشيء مجملاً ثم تفصيله بعد؛ ليكون أوقع في النفوس وأدعى لتمكنه منها)[4].

وقال السيوطي: (جميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً، فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله؛ ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق)[5].

ووقوع الفاتحة مطلع التنزيل جاء على أعلى مراتب البلاغة بالإشارة إلى ما سيق كلام القرآن العظيم لأجله. وإجمال الفاتحة يقوم على مقاصد ثلاثة عامة:

أولها: تعريف بالمدعو إليه –كما أشير بصدرها–.

وثانيها: تعريف بالصراط المستقيم –وقد صرح به فيها–.

وثالث المقاصد: تعريفها بالحال عند الرجوع إليه تعالى.

وسميت هذه المقاصد بالمهمة، ثم فيها من المقاصد أيضا كالتتمة لتلك الخواص وهي:

الأولى: تعريف بأحوال المطيعين {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}[الفاتحة:7].

والأخرى: تعريف بمنازل الطريق {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:5][6].

قال الحسن البصري: (إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة)[7].

فالآيات الثلاث الأولى شاملة لكل معنى تضمنته الأسماء الحسنى والصفات العلى. فكل ما في القرآن من ذلك (مفصل من جوامعها. فالآيات الثلاث الأُول من قوله:{الحمد لله... شاملة لكل ما يحيط بأمر الخلق في الوصول إلى الله والتحيز إلى رحمة الله والانقطاع دون ذلك. فكل ما في القرآن منه؛ فمن تفصيل جوامع هذه، وكل ما يكون وصلة بين ذلك مما ظاهرهن هذه من الخلق ومبدؤه وقيامه من الحق فمفصل من:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [8] وقد صح تسميتها بالسبع المثاني وتأويل ذلك أنها سبع آيات بلا خلاف بين القراء والمفسرين، ووصف الرسول صلى الله عليه وآله آياتها بالسبع المثاني، لأنها تثنى في كل صلاة تطوع ومكتوبة [9].

(1) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 110/1.
(2) نظرة العجلان: محمد الخطيب 9.
(3) نظم الدرر: البقاعي 22/1.
(4) جواهر البيان: الغماري 19.
(5) أسرار ترتيب سور القرآن: السيوطي 19.
(6) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، السيوطي 19.
(7) م. ن ، 17، وينظر: قطف الأزهار: السيوطي 101/1.
(8) ينظر: نظم الدرر ، 22/1-23.
(9) ينظر: التحرير والتنوير: ابن عاشور 1 / 133، وتفسير العياشي 1 / 56.

{إجمال ألفاظ الفاتحة}

تقدمت سورة الفاتحة سور القرآن من حيث الترتيب فكانت واجهة عريضة فيها، وسميت كذلك بأم الكتاب، والأساس، فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال، مع ما تضمنته من مقاصد منها: أن سورة الفاتحة في براعة الاستهلال بها نزلت من القرآن منزلة ديباجة الخطبة فقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}:2] عبارة ثناء، وتحمل تمهيداً لطلب أعظم مقصد في القرآن الكريم وهو {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}:6] وما يحمل هذا التعبير من تعريف بالصراط المستقيم ولما عرف العبد المدعو إليه وعرف الصراط المستقيم، كان لابد من تعريف حال الرجوع إليه تعالى وهي الآخرة لذلك كان الثالث قوله تعالى:{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}:4]، ولولا هذا المقصد لوقف العبد على الصراط من دون أن يبلغ مقصده كاملا. وبذلك تمت مقاصد سورة الفاتحة في وجهها الأول الخاص بالله سبحانه وتعالى من التعريف به وصراطه والمآل اليه والمرء في اشتياق بعد أن عرف تلك الأحوال أن يعرف أحوال صفات المطيعين من العباد بعد التعريف بالمعبود، ليقتدي بها ويطمح إلى تقليدها واتباعها؛ عله يحظى بمنزلة المطيعين من العباد المشمولين بهذه العناية والرعاية.

ويبين الزمخشري كيف ان سورة الفاتحة اجملت علوم القرآن فذكر انها مشتملة على الثناء على الله بما هو أهله وعلى التعبد والأمر والنهي وعلى الوعد والوعيد، وان آيات القرآن لا تخرج عن هذه الأمور[(1)]. وفي هذا إشارة إلى ما أجملته الفاتحة وفصلته السور. ولفظ الجلالة الله هو الاسم الكريم الذي ابتدأت به السورة؛ لأنه (دال على الذات، راجع إليه جميع الصفات، مختص به تعالى، لم يُسم به أحد، لا في الجاهلية ولا في غيرها، قال تعالى:{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} مريم:65] قال ابن عباس:(أي: لا أحد يسمى الله)[(2)] وراعى الخطاب القرآني الإيجاز في البسملة لكونها تكرر في سائر السور ما خلا سورة التوبة فكانت التسمية أولى من التحميد كما سيأتي. والبسملة (جمعت ما لم يجتمع في آية غيرها؛ وهو انها آية مستقلة في الفاتحة عند من قال به وهي بعض آية في النمل [30] وربعها الأول بعض آية في {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} العلق:1] ونصفها الأول بعض آية في هود:{بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا}41] وربعها الثالث بعض آية في سورة الرحمن:{الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ} 1–2] ونصفها الثاني آية في الفاتحة وبعض آية في البقرة {هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} 163])[(3)].

وسورة الفاتحة بنيت على أسلوب الإجمال والإطلاق ومما يستدل به على هذا الإجمال والإطلاق لفظة (الحمد) فـ: (الحمد والشكر متقاربان والحمد أعمهما، لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه ولا تشكره على صفاته)[(4)]، وأن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك[(5)].

ثم إنه تعالى قال على لسان عبده {الْحَمْدُ لِلَّهِ} وليس على صورة أخرى (كأحمد الله) أو(نحمد الله)، لان هذين التعبيرين يكونان مختصين بفاعل معين، ففاعل (أحمد) هو المتكلم وفاعل (نحمد) هم المتكلمون من حيث أن عبارة (الحمد لله) مطلقة فهو المحمود على وجه الاجمال منك ومن غيرك.

وإن قولك (أحمد الله) و(نحمد الله) مرتبط بزمن معين؛ لأن الفعل له دلالة زمنية معينة فالفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، ومعنى ذلك أن الحمد لا يحدث في غير هذا الزمان الذي نحمده فيه، في حين أن عبارة (الحمد لله) مطلقة غير مقيدة بزمن معين ولا بفاعل معين فالحمد فيها مستمر غير منقطع[(6)].

قال الرازي: إنه (لما قال ـ الحمدُ لله ـ فقد أفاد ذلك أنه كان محموداً قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين، فهؤلاء سواء حمدوا أو لم يحمدوا وسواء شكروا أو لم يشكروا فهو تعالى محمود من الأزل إلى الأبد بحمده القديم وكلامه القديم)[(1)]. وأضاف

(1) ينظر: الكشاف: الزمخشري 11/1.
(2) قطف الأزهار، 109/1، وينظر: تأملات في سورة الفاتحة: د. حسن باجودة 41.
(3) قطف الأزهار 127/1.
(4) لسان العرب: ابن منظور (حمد) 552/2.
(5) ينظر: التفسير الكبير: الرازي 219/1. والتبيان 1 / 2 للشيخ الطوسي.
(6) ينظر: لمسات بيانية: د. فاضل السامرائي 14.

الرازي: (أن الحمد عبارة عن صفة القلب وهي اعتقاد كون ذلك المحمود متفضلاً منعماً مستحقاً للتعظيم والإجلال، فاذا تلفظ الانسان بقوله (أحمد الله) مع أنه كان قلبه غافلاً عن معنى التعظيم اللائق بجلاله تعالى كان كاذبا، لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامداً مع أنه ليس كذلك، أما إذا قال: الحمد لله ـ سواء أكان غافلاً أم مستحضراً لمعنى التعظيم، فإنه يكون صادقاً؛ لأن معناه أن الحمد حق لله وملكه، وهذا المعنى حاصل سواء أكان العبد مشتغلاً، بمعنى التعظيم والاجلال أم لم يكن فثبت أن قوله: {الحمد لله} أولى من قوله: (أحمد الله)[2].

فلفظة الحمد أنسب للإجمال منها إلى مقيد يقيدها، كتحويل اسميتها إلى جملة فعلية أو غير ذلك. والحمد لله في ابتداء سورة الفاتحة هو الأوقع والأنسب على السمع فيكون التعبير: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} صورة متوازنة في السمع منسجمة مع ابتداء الخطاب مع {الرحمن الرحيم}.

فلفظ الجلالة (الله) عام مجمل لصفات أخرى، وأن الحمد استحقه لذاته لا بوصف دون آخر. والحمد (هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل سواء تعلق بالنعمة أو لا)[3] وهذا يعطي معنى الشمول والاطلاق للحمد. وقوله:{رَبِّ الْعَالَمِينَ} إشارة إلى ابتداء الخلق تنبيها على الاستدلالات بالمصنوع على الصانع وأنه قال: رب العالمين ولم يقل العوالم ذلك أن العوالم يطلق على جميع العوالم من المكلفين وغيرهم من جمادات وحيوانات وغير ذلك، وأن (العالمين) لا تطلق إلا على ذوي العلم خاصة وعلى ما اجتمع فيه العقلاء وغيرهم فيغلب العقلاء، وقد جمع العالم ولم يؤت به مفرداً لقرينة الاستغراق، ولو أفرد لتوهم أن المراد من التعريف العهد أو الجنس؛ فكان الجمع تنصيصاً على الاستغراق[4]. على هذا يكون قوله تعالى: رب العالمين، إما أن يعني رب البشر أو المكلفين؛ وإما رب الخلق كلهم، وغلّب العقلاء منهم. ولهذا التخصيص أو التغليب سببه؛ ذلك أن الكلام في سورة الفاتحة خاص بالعقلاء فالعبادة والاستعانة وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم وتصنيف الخلق إلى منعم عليهم ومغضوب عليهم وضالين هو خاص بالمكلفين فكان هذا الاختيار أنسب شيء ولو قال:(رب العالم أو رب العوالم) لم يحسن هذا الحسن؛ لأنه يشمل غير المكلفين. وقوله: رب، عم ذلك كله فالرب يشمل كل ما ذكر من صفات الله من ملك وخلق فهي صفة مطلقة تشمل العوالم كلها عاقلة وغير عاقلة وبذلك تؤكد هذه اللفظة عمومية الفاظ الفاتحة. ولما قال رب العالمين جاءت الصفات بعد ذلك على اسلوب الاطناب على عكس التسمية (لله رب العالمين) فقد جاءت على أسلوب الإيجاز فمقام الحمد مقام يقتضي من البسط ما لا يقتضيه مقام التسمية لأن الغرض منها التبرك ومنها الاشارة إلى أن التكرار إذا وقع في الكلام البليغ على سبيل التتابع ينبغي أن يفصل بينهما بشيء لا يكون أجنبيا؛ كما وقع بقوله رب العالمين ومنها الإشارة الى أنه ينبغي أن يراعى في التسمية الإيجاز، وفي التحميد الاطناب... ومنها أن التسمية باعتبار تكرارها في سائر السور أولى بالاختصار من التحميد، فمنها أن التحميد لمّا كان الثناء بالجميل ينبغي أن يراعى في تكرره الثناء المتخالف؛ كما وقع في القرآن من قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}:1]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} الأنعام:1]،{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} الكهف:1]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ} سبأ:1]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فاطر:1]، بخلاف التسمية فإن الأنسب أن يكون بأفضل الأسماء والصفات وهو الله الرحمن الرحيم[5].

واستغرق الحمد الزمان كله من الأزل إلى الأبد ولم يترك منه شيئا؛ فكان كقوله: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ} القصص:70] وشمل ذلك قوله:{وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الزمر:75] وقوله:{وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} يونس:10]، فهذا هو الاستغراق في الحمد وشموله. وقوله الرحمان الرحيم (كلام لا يقوم غيره مقامه، لا في

---

(1) التفسير الكبير 1/ 220. والتبيان 1 / 3.
(2) م. س 220/1.
(3) تيجان البيان في مشكلات القرآن: الخطيب العمري 53.
(4) ينظر: تفسير البيضاوي 3/1، وجوامع الجامع 1/ 23 للشيخ الطبرسي، والتحرير والتنوير، أبن عاشور 198/1.
(5) ينظر: قطف الأزهار ، 124/1.

ألفاظه ولا في ترتيبه)[1] قوله الرحمان جاءت الرحمان على صيغة (فعلان) تفيد الدلالة على الحدوث والتجدد نحو عطشان وجوعان وغضبان ولا تفيد الدلالة على الثبوت وتفيد أيضاً الامتلاء بالوصف[2].

وجاءت صفة الرحيم على صيغة (فعيل)؛ لتدل على الثبوت في الصفة نحو: طويل، وجميل، فجمع بينهما ليدل على أن وصفه الثابت والمتجدد هو الرحمة فرحمته دائمة لا تنقطع، وهو من أحسن الجمع بين الوصفين، ولا يؤدي الوصف بأحدهما ما يؤدي اجتماعهما[3]، وقوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} أي مالك يوم الجزاء، وأن لفظة (مالك) فيه معنى إطلاق التصرف فيما يملك، وان المالكية تبقى في يد المالك إذا تصرف فيما يملك، وأن (مالك) أمدح بأنه يحسن أن يضاف إلى من لا يضاف الملك إليه نحو مالك الإنس والحيوان ومالك الجمادات، فلفظة (مالك) أوسع من (ملك) لشمولها العقلاء وغيرهم، وكل هذه المعاني تعطي معنى الإطلاق والشمول لكلمة الدّين[4] وقد يسأل سائل لم قال: يوم الدّين، ولم يقل يوم القيامة؟ والجواب أنه قال ذلك –والله أعلم– (مراعاة للفاصلة وترجيحاً للعموم؛ فإن الدين بمعنى الجزاء يشمل جميع أحوال القيامة من ابتداء النشور إلى السرمد الدائم بل يكاد يتناول النشأة الأولى بأسرها على أن يوم القيامة لا يفهم منه الجزاء مثل يوم الدين)[5].

وكذلك فإن لكلمة (الدين) معاني أخرى شاع استعمالها، كالطاعة والشريعة والجزاء والحساب والخضوع لله، وبذلك تذهب فيه نفس السامع كل مذهب، وقد أضاف الملك الى اليوم، واليوم لا يملك بل يملك ما فيه من أمور مادية ومعنوية وذلك لقصد العموم والشمول، فملكية اليوم هي ملكية لكل ما فيه فهي إضافة عامة مطلقة[6]. واقتران الحمد بهذه الصفات الربانية أحسن اقتران وأجمله، وقد استغرق الحمد الأزمنة كلها فقد استغرق الحمد حين كان الله الفرد الصمد ولم يكن معه شيء وهو قوله الرحيم واستغرق الحمد وقت كانت الرحمة تنزل وهي لم تنقطع ولا تنقطع، وذلك قوله الدين واستغرق الحمد يوم الجزاء كله، ويوم الجزاء لا ينتهي؛ وذلك لخلود الجزاء وأهله من الفائزين في جنانهم والخاسرين في نيرانهم، فجزاء كل منهم غير منقضٍ وذلك هو يوم الدين (ومن كونه مالكاً للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب، بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق، في قوله رب العالمين دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله)[7].

وقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} مع أن التعبير في إياك نعبد قائم على الاختصاص إلا انه يوحي كذلك بأن العبادة على مختلف اصولها وفروعها هي حق مطلق لله وحده، وهذا هو مفهوم الاطلاق. ثم إن هذا التعبير الكريم قائم على إطلاق فعل الاستعانة، ولم يقيد بشيء؛ بل إن الاطلاق يشمل أمور الدنيا والآخرة. وفي هذه الآية الكريمة لم يقل: أعبد وأستعين وذلك مظهر من مظاهر الجماعة. وهذه السورة التي تقرأ في كل ركعة من ركعات الصلاة فيها إشارة إلى أهمية الجماعة بكلمة (نعبد) و(نستعين) و(اهدنا)؛ وهذا يدل على أن العبارة شاملة مجملة؛ فدين الإسلام دين جماعي تظهر شعائره في الصلاة والحج بوصفها من أكبر المظاهر الجماعية، وكذلك الزكاة والصدقات، من أكبر مظاهر التكافل الاجتماعي، والجهاد في شؤون الجماعة، والصوم ليس عبادة فردية محضة وغير ذلك من أمور كثيرة فيها مظاهر جماعية مما يدل على الإطلاق دون التقييد، (والمجيء بالنون في الفعلين بقصد الاخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد. وقيل أن المقام لمّا كان عظيماً لم يستقل به الواحد استقصاراً لنفسه واستصغاراً لها؛ فالمجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس)[8]. وفضلا عن مجيء (نستعين) وغيرها على معنى الجماعة وأنها مظهر من مظاهر الجماعة؛ فإنها جاءت مناسبة للمعنى المراد ومراعاة حسن الكلام؛ فإن الوقوف على فاصلة معينة في القرآن لم يأتِ لأجل تناسب الفواصل حسب، وإنما لمعنى مراد مقصود فضلاً عن

(1) م. ن 118/1.
(2) ينظر: التفسير القيم ، ابن قيّم الجوزية 37/1.
(3) ينظر: لمسات بيانية 37.
(4) ينظر: البحر المحيط: أبو حيان 134/1.
(5) روح المعاني: الآلوسي 88/1.
(6) م. ن 1 / 88، وينظر: لمسات بيانية 38.
(7) الكشاف 18/1. وجوامع الجامع 1 / 7.
(8) فتح القدير 25/1.

المفاضلة، خلافاً لمن اعتمد الفاصلة وحدها نحو ابن الأثير من القدماء، ود. إبراهيم السامرائي من المحدثين[1]. فابن الأثير يخالف الزمخشري في تقديم (إياك نعبد) فالزمخشري ذكر في تفسيره: أن التقديم في هذا الموضع قصد به الاختصاص[2]، بينما ابن الأثير يرى أنه (لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص وانما قُدِّم لمكان نظم الكلام؛ لأنه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله (إياك نعبد...) ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فجاء بعد ذلك قوله (إهدنا الصراط المستقيم) وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن)[3].

والتعبير القرآني على هذه الصورة جاء مراعاة للمعنى والنظم في آن واحد.

وإنه لمّا وصف بأنه رب العالمين سبحانه علم أنه حاضر في كل زمان ومكان، وليس غائباً؛ ولم يذكر له سبحانه في سورة الفاتحة ظرفاً مكانياً أو زمانياً على جهة الاجمال والإطلاق، ذلك لأنه رب العالمين جميعاً فلا يغيب عنهم ولا يغيبون عنه فلما علم حضوره نودي بنداء الحاضر المخاطب[4].

وعبارة (إياك نعبد) لما سبقت أحكاماً مطلقة عامة في أول الفاتحة جاء الطلب بالهداية من العبد، وأن يبين لهم ربهم معرفة هذا الدين فعرفه لهم بأنه (الصراط المستقيم) بياناً للدين القويم على الاستعارة بتشبيه الدين القويم بالصراط المستقيم جاء في اللسان: هديته الطريق والبيت هداية أي عرفته لغة أهل الحجاز وهداه الى الطريق بمعنى أرشده إليه، وهداه للطريق بينه له أيضا، وهديت لك بينت لك وقوله تعالى: {اهدنا الصراط} أولم تبين لهم[5]؛ فالبعيد الضال عن الطريق يحتاج الى هاد يدله على الطريق ويوصله إليه، فهنا نستعمل (يهدي الى) أي يوصل إلى ويرشد إلى، والذي يصل إلى الطريق يحتاج إلى هادٍ يعرفه بأحوال الطريق ومراحلها وما فيها من مخاوف وأماكن الهلكة والأمن ويعرفه بما يحتاج السالك في هذه الطريق، وهنا نستعمل (هداه الطريق)، وهذا مناسب لما جاءت عليه السورة في طلب الهداية في معرفة أمور الدين موضحة لهم، فالسورة أجملت لهم أسس هذا الدين، ولم تبين لهم كيف العمل بهذه الأسس والاحكام النظرية، فطلب الهداية في هذه السورة بـ اهدنا الصراط المستقيم دون التعدية بالحرف لمن كان في الطريق بعد تلقي الاشارات والدلائل إليه دون تفصيل بمعرفة خصوصيات الأصول، فيطلب أن يعرفه ويبصره بشأنه ولمن ضل وانحرف من المؤمنين عن الجادة، فيرده إليها فتشمل القسمين أي (اهدنا الصراط) دون تعدية، فجمع معان عدة كما سبق، وأن التعدية دون أحرف فقال لمن يكون في الطريق ولمن لا يكون، فهنا نطلب الهداية لمن كان في الطريق ولما كان هؤلاء من الموحدين الحامدين لله، كان المعنى علاوة على ما مر طلب استمرار الهداية على الطريق المستقيم والتثبيت على الهدى والزيادة فيه، كما قال تعالى:{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} محمد:17] وهكذا يكون بتفصيل الأحكام وبيانها بعد أن أجملها.

جاء في البحر المحيط: (ومضمون هذه الجملة طلب استمرار الهداية الى طريق من أنعم الله عليهم؛ لأنه من صدر منه حمد الله واخبر بأنه يعبده ويستعينه فقد حصلت له الهداية، لكن يسأل دوامها واستمرارها)[6]. ولذلك نجد في أول سورة البقرة صفات هؤلاء الحامدين مبينة ومفصلة بعد إجمالها في سورة الفاتحة (صراط الذين أنعمت عليهم) وهم المقبولون وهم هنا طائفة واحدة أما المردودون فهم فريقان: المغضوب عليهم والضالون، والذين كملت نعمة الله عليهم هم الذين جمعوا بين معرفة الحق

(1) ينظر: من بديع لغة التنزيل، د. إبراهيم السامرائي 9.
(2) ينظر: الكشاف 20/1.
(3) المثل السائر: ابن الأثير 39/2.
(4) ينظر: لمسات بيانية 37.
(5) لسان العرب: (هدى) 774/8.
(6) البحر المحيط 148/1.

لذاته والخير لأجل العمل به وهؤلاء هم المرادون بقوله (انعمت عليهم) فقد ذكر الصراط أولاً مجملاً وثانياً مفصلاً بياناً وإيضاحاً للأول[1].

ومع أن قوله: (صراط الذين أنعمت عليهم) هو تفصيل لقوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم إلا أن الأسلوب جاء على الإجمال في الجملة الفعلية في قوله: أنعمت عليهم لم يذكر نوع النعم مفصلاً، وإنما جاء الأسلوب على الاجمال.

وبُنِيِ المغضوب عليهم للمفعول إليهم الغضب، عليهم: غضب الله وغضب الغاضبين لله، ولا يتخصص بغاضب معين فهم مغضوب عليهم من كل الجهات، وأن العلائق تتقطع بينهم نحو قوله تعالى: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} العنكبوت:25] وتبرأ بعضهم من بعض، حتى ليتبرأ الانسان من جلده وجوارحه التي تشهد عليه، فهم مغضوب عليهم من كل شيء ومن كل أحد وهذا عموم وشمول. فانظر هذا العموم في الغضب وهذا الاطلاق.

وقال: غير المغضوب عليهم ولا الضالين فذكر (لا) بينهما، ولم يقل غير المغضوب عليهم والضالين؛ لئلا يفهم أن المباينة لمن جمع الغضب والضلال دون من لم يجمعهما فالمباينة لكل صنف منها وهذه دلالة عموم وإطلاق وجاء في الكشاف فإن قيل: (لِمَ دخلت (لا) في (ولا الضالين) قلت لِما في (غير) من معنى النفي كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين)[2] سؤال الكشاف يعني أن (لا) المسماة بالمزيدة عند البصريين إنما تقع بعد الواو العاطفة في سياق النفي للتأكيد والتصريح بتعليق النفي بكل من المعطوف والمعطوف عليه؛ كي لا يتوهم أن المنفي هو المجموع من حيث هو مجموع، فيجوز حينئذ ثبوت أحدهما[3]. وبهذا يتناسب قوله تعالى: الحمد لله وقوله: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالحمد مطلق غير مقيد بزمن ولا بفاعل معين وهو دائم ثابت وهؤلاء مغضوب عليهم وضالون على جهة الثبوت والدوام[4]. وهذا من تناسب مفتتح السورة ومختتمها.

(وبنوا الصراط على وزن (فعال) لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط، وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء، كاللحاف والخمار والرداء والغطاء والفراش والكتاب الى سائر الباب)[5] ومع أن لفظة (المستقيم) صفة مقيدة له إلا أن هذه الصفة مع موصوفها أعطت معنى عاماً غير مقيد.

وإضافة (الصراط) إلى الموصول المبهم (الذين) دون أن يقول: صراط النبيين والمرسلين؛ ففيه إجمال؛ إذ لم يبين من هؤلاء المنعم عليهم، وفصّل ذلك في موضع آخر بقوله:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} النساء:69] ففصل بعد إجمال.

وفي اهدنا الصراط إن (فعل الهداية متى عُدّي بـ(إلى) تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتي بحرف الغاية، ومتى عُدّي بـ(اللام) تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتي باللام الدالة على الاختصاص والتعيين فإذا قلت هديته لكذا فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيئته ونحو هذا، واذا تعدى بنفسه تعدى المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإيهام. فالقائل اذا قال: اهدنا الصراط هو طالب من الله أن يعرفه اياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرّد الفعل من الحرف وأتى به مجرداً فعدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها ولو عُدّي بحرف تعين معناه وتخصص معنى الحرف فتأمله فإنه من دقائق اللغة واسرارها)[6] فعدم التعدية بـ(إلى) أو بـ(اللام) يعطي معنى العموم والاطلاق ثم فسره بقوله: صراط الذين... (ولم يقل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؛ لما في الأول من التنبيه والإشعار بأن الصراط المستقيم هو

(1) ينظر: الكشاف 21/1.
(2) الكشاف 22/1.
(3) م. ن 22/1.
(4) ينظر: لمسات بيانية 76.
(5) بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية 244/1.
(6) بدائع الفوائد 238/1.

صراط المؤمنين؛ فدل عليه بأبلغ وجه، كما تقول: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل؛ لأنك تثبت ذكره مجملاً ومفصلاً فجعلته علماً في الكرم والفضل، كأنك قلت: من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين جميعاً فعليه بفلان)[1] وأن عبارة المغضوب عليهم والضالين فيها هاتان اللفظتان اللتان جاءتا على سبيل الإجمال هنا، وفصلت في مواضع اخرى من التنزيل مرتبة في سورة البقرة بعدها بقوله تعالى: {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} البقرة:90] ثم في سورة المائدة: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} المائدة:60] وكذلك قوله في السورة نفسها:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [77]، ثم قوله في سورة الاعراف:{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ}الاعراف:152].

وقد جاء ذكر اليهود وهم المغضوب عليهم في سورة البقرة مفصلاً وفي سورة آل عمران جاء مجملاً، وجاء ذكر النصارى (الضالين) مفصلا في آل عمران ومجملا في البقرة[2] والمغضوب عليهم والضالين ذكروا في الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان؛ فعقب بسورة البقرة وجميع ما ذكر فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب ثم عقبت البقرة بسورة آل عمران وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب النصارى[3]. وهذا من أسرار إعجاز القرآن وبدائعه.

- **تناسب الأطراف في سورة الفاتحة**

جاء هذا التناسب في مواقع متعددة:

1- التناسب بين الافتتاح والاختتام: فخاتمة سورة الفاتحة جاءت كتفصيل جملة المطلوب فيها إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببة لغضب الله والضلال؛ ففصّل جملة ذلك بقوله: أنعمت عليهم؛ والمراد: المؤمنون؛ ولذلك أطلق الانعام ولم يقيده ليتناول كل إنعام؛ لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان فقد أنعم عليه بكل نعمة؛ لأن نعمة الإيمان مستتبعة لجميع النعم؛ ثم وصفهم بقوله: غير المغضوب عليهم ولا الضالين: يعني أنهم جمعوا بين النعم المطلقة وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال المسببين عن معاصيه وتعدّي حدوده[4].

2- وقد تتناسب هذه السورة مع سورة البقرة بعدها: فإنّ (افتتاح سورة البقرة بقوله:{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} البقرة:2] إشارة إلى الصراط في قوله: اهدنا الصراط كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة)[5] وكما ختمت الفاتحة بالدعاء للمؤمنين على وجه الإجمال ختمت سورة البقرة بالدعاء للمؤمنين على وجه التفصيل (فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع؛ وذلك من وجوه المناسبة في التتالي والتناسق)[6].

وفي قوله: اهدنا الصراط المستقيم صراط، كرر لفظة: صراط (وذلك بأن الصراط هو المكان المهيأ للسلوك، فذكر في الأول المكان ولم يذكر السالكين، فأعاده مع ذكرهم فقال: صراط الذين أنعمت عليهم ولهذا كرر أيضا قوله:{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} الشورى52-53] لأنه ذكر المكان المهيأ)[7] أولا ثم ذكر غايته ومطلوبه.

---

(1) المثل السائر 27/1.
(2) ينظر: نظم الدرر 13/2.
(3) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن: 27، 28، وينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى سالم 86.
(4) ينظر: البرهان: الزركشي 233/1.
(5) الاتقان: السيوطي 70.
(6) أسرار ترتيب سور القرآن 28-29.
(7) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي 130/1.

وإذا ما عدنا الى سورة الفاتحة مرة أخرى نجد لها وجها آخر من الإعجاز فإنها مطلقة مفتوحة على جميع سور القرآن وفيها كذلك نوع تفصيل للاسم الشامل المطلق (الله) أنه {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، وفيها نوع تفصيل للصراط المستقيم أنه {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}.

يقول السيوطي: (وإذا تأملت ما أوردناه في هذه السورة –على وجازتها– من الأسرار اللطيفة، والنكت البديعة علمت مناسبة الافتتاح بها وكونها أُم القرآن وأفضله وأعظم سوره، هذا مع أنه على كثرته بالنسبة إلى ما اشتملت عليه مما لا تدركه أفهامنا، كنقطة من بحر)[1]، فهي سورة مجملة الألفاظ فيها نوع تفصيل تنبيها على أن القرآن العظيم جاء على هذا الأسلوب بين إجمال وتفصيل أو إيجاز وإطناب.

المبحث الثاني

سورة البقرة

بين يدي السورة:

المقصود الإجمالي لهذه السورة مدح مؤمني أهل الكتاب، وذم كفار مكة ومنافقي المدينة، وقصة التخليق والتعليم وملامة علماء اليهود، والرد على النصارى، وابتلاء إبراهيم، وذكر الحج والقصاص والصيام، وقتال الكفار، وتعديد النعم على بني إسرائيل وتحريم الربا[2]، وصرح الإمام الرازي في آخر سورة البقرة عن نظم هذه السورة وبدائع ترتيبها فقال:(ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم بأن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا معجز بحسب أسلوبه)[3] ثم بدأت السورة بكلمات فيها مدود وفواصل طويلة منسابة تكون أنسب لقرع الأسماع، وتنبيهها بألفاظ توحي بأن الخطاب يحتاج إلى إصغاء وإنصات للإدراك والاستيعاب، فكان للسورة هذا الجو الهادئ الخاص الذي (يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو ولها إيقاع موسيقي خاص إذا تغير في أثناء السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة)[4] فمفتتح السورة:{الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} له نغمته الخاصة بمناسبته لموضوع السورة في تفصيل الأحكام وضرب الأمثال.

يقول العسكري:(وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً... لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم)[5]. ويرى السيوطي:(أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها وشرح له وإطناب لإيجازه)[6].

– **تناسب الأطراف:**

فبعد أن أجملت سورة الفاتحة حال الأصناف الثلاثة من طالبي الهداية:

(الذين أنعمت عليهم) والمغضوب عليهم، والضالين فصّلت سورة البقرة تلك الأصناف فبدأت بالمتقين: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} لبقرة:2–5] ثم الكافرين:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} 6]، وأطنبت بعد ذلك في تفصيل صفات الضالين المنافقين: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ..... يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة:8–20] ضارباً لهم الأمثال.

(1) قطف الأزهار 150/1.
(2) ينظر: بصائر ذوي التمييز 134/1-135.
(3) التفسير الكبير 125/7.
(4) في ظلال القرآن: سيد قطب 28/1.
(5) كتاب الصناعتين: العسكري 193/1.
(6) أسرار ترتيب سور القرآن 24.

وهذا من بديع الأساليب القرآنية في الإجمال والتفصيل في شؤون هذه الطوائف الثلاث.

وكما أرشد سبحانه عباده السائلين الهداية في خاتمة الفاتحة إلى أن الهدى المسؤول إنما هو الكتاب[1] (كان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة البقرة)[2] فابتدأت سورة البقرة بمدح المؤمنين والإيمان بالغيب وجميع فرائض الإسلام، وبذم الكافرين على أصنافهم ثم ختمت بمدح المؤمنين ودعائهم النصر على الكافرين فناسب مطلعها مقطعها[3] قال ابن حيان:(تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء وذلك من أبدع الفصاحة حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط بالطول بأوله... فبين تعالى في آخر هذه السورة أن أولئك المؤمنين هم أمّة محمد ص)[4]، وجاء في النبأ العظيم:(إن الآيات الخمس لبداية السورة تتجاوب مع الخاتمة إذ كان مطلع السورة وعداً كريماً لمن يؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح. ونجد بلاغاً عن نجاح دعوتها:{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} البقرة:285])[5] فختمت السورة بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة الإسلامية، وذلك من جوامع الكلم؛ فكان هذا الختام تذييلا.

الإجمال والتفصيل في السورة:

– في العبارة الواحدة:

بعد الإشارة في أول سورة البقرة إلى صفات المؤمنين ثم الكافرين ثم الإسهاب في صفات المنافقين، ثم عاد القرآن ليفصل في الكافرين والمنافقين والفاسقين بقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}البقرة:26–28] فقد أجمل القول بلفظة (به) ثم فسّره بقول:(أن يوصل) دون تخصيص فكان بياناً بعد إجمال؛ وهذا أروع في النفس وأجمل. والقطع هنا أي (قطعهم الأرحام وموالاة المؤمنين، وقيل قطعهم ما بين الأنبياء... في إيمانهم ببعض، وكفرهم ببعض)[6] وهذه إشارة من إشارات التفصيل. وقد تأتي هذه الإشارة إلى الإجمال والتفصيل على أسلوب آخر؛ فقد توحي بعض الألفاظ المجملة بظلال من معان كثيرة كلفظة (خطوات)[7] في قوله تعالى:{وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} البقرة 168، فقد أجمل الخطاب (خطوات الشيطان) ثم فصلها في السياق بقوله تعالى:{إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 169،ونجد مثل هذا التحذير القرآني في سور أخرى من التنزيل[8].

وكذلك لفظ (البِر) في قوله تعالى:{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة:177] فذكر (البِر) مجملا في قوله:(ليس البر...) ثم فصله بقوله:(ولكن البر...) وفي هذا (الخطاب لأهل الكتاب)[9] بيان وتفصيل لمفهوم (البر) المجمل وفي جانب معين منه وتحديد مساره وتبيينه في هذه الآية؛ لما ينطوي عليه لفظ (البِر) من دلالات كثيرة.

---

(1) ينظر: نظم الدرر 32/1، مباحث في التفسير الموضوعي 84 وما بعدها.
(2) نظم الدرر 32/1، وينظر: البرهان على إعجاز القرآن، عبد العزيز الشناوي 20.
(3) ينظر: جواهر البيان 24، مباحث في التفسير الموضوعي 76.
(4) البحر المحيط 378/2، وينظر: التفسير الكبير 128/7.
(5) النبأ العظيم، د. محمد دراز 210.
(6) الكشاف 114/1.
(7) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 208/2.
(8) النساء:60، القصص:15، المائدة: 91، فاطر: 6.
(9) الكشاف 198/1.

ومثل ذلك لفظة (القصاص) التي جاءت على صورة مجملة في قوله تعالى:{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}البقرة178، وهذه العبارة كانت من أوجز العبارات القرآنية؛ فكان الكلام هنا إجمالاً للموضوع الذي قد فصله القرآن قبل ذلك في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} البقرة:178] حيث فصّل الخطاب القصاص وقيمته في الحياة، ثم أجمل تفصيله بقوله:(ولكم في القصاص حياة...) وذلك من أساليب القرآن في الإجمال والتفصيل؛ أنه يفصّل أولاً ثم يعطي نتيجة ذلك التفصيل وفحواه والمقصود منه بأوجز عبارة آخراً وهذا (من أوجز الكلام وأفصحه)[1] ويقول د. أحمد بدوي:(ولو أخذت مفرداته كل مفردة على حدة فقد لا تجد فيه كبير روعة ولا قوة أسر، ولكن عندما انتظمت هذه المفردات في سلك فلاءمت ما قبلها وارتبطت بما بعدها اكتسبت جمالاً وجلالا)[2] وقد أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

أبلغ أبا مالك عني مغلغلةً وفي العتاب حياةٌ بين أقوام

يريد أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب فكفّوا عن القتل، فكان في ذلك حياة[3].

وكما تنوعت أساليب الإجمال والتفصيل في العبارة الواحدة فجاءت مرة مجملة ثم فصلت، ومرة أخرى جاءت مفصلة ثم أجملت، كذلك جاء قوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}البقرة:215].

جاء أولاً على طريقة إجمال الكلام بقوله:(ماذا ينفقون) ولغاية تنبيه السائل على الأهم من (المنفَق)؛ وهو إلى من يكون الإنفاق، ولم يترك السؤال دون إجابة؛ فقال على الإجمال مشيراً إلى أوجه الخير التي ينفق عليها بقوله تعالى:{فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}.

فظاهر الآية إجمال السؤال عن المنفق فكان التفصيل ببيان مستحقي هذا الإنفاق، ثم أردفه بالإجمال إلى بيان المنفق (وما تفعلوا من خير...) من غير تفصيل؛ ذلك أن المؤمنين سألوا تفصيل ما أمروا به من الإنفاق غير مرة على الإجمال[4]. وجاء في الكشاف:(فإن قلت: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ماذا ينفقون، وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف؟ قلت: قد تضمن قوله: وما تفعلوا من خير، بيان ما ينفقونه، وهو كل خير، وبني الكلام على ما هو أهم، وهو بيان المصرف؛ لأن النفقة لا يعتدُّ بها إلا أن تقع موقعها)[5].

وكذلك تنوع الخطاب إجمالاً وتفصيلاً، تقديماً وتأخيراً بقوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}البقرة:219] فجاء الخطاب مرة على تفصيل مضار الخمر ومنافعها (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس...) ومرة على إجمال ماذا ينفقون[6] بقوله تعالى:{قُلِ الْعَفْوَ}.

ومثل هذا التنوع بين الأساليب إجمالاً وتفصيلاً قوله تعالى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} البقرة:222].

(1) التفسير الصافي 1/ 216، للفيض الكاشاني.
(2) من بلاغة القرآن: د. احمد أحمد بدوي 54.
(3) ينظر: تأويل مشكل القرآن 13، والبيت لهمام الرقاشي ذكره ابن فارس في (مقاييس اللغة) 377/4.
(4) ينظر: روح المعاني 501/1، التحرير والتنوير 300/2.
(5) الكشاف 233/1.
(6) ينظر: المحرر الوجيز: لإبن عطية 298/1، روح المعاني 515/1 التحرير والتنوير 351/2.

ثم أشار القرآن إلى المنفق المجاب عليه بقوله تعالى:(ماذا ينفقون) بقوله:{أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ} البقرة:254]، وهذا من تنوع الخطاب ومن تمهيد الكلام لموعظة تهز من أعطاف السامعين للإنفاق؛ لأن إخراج الإنفاق مما يقتضي التضحية والخروج عن الشح بالمال والثراء. وفي قوله: (مما رزقناكم) إشارة إلى أن الذي تنفقونه هو مما رزقناكم ولستم أنتم الرازقين الناس.

فهذه دلائل وعبر تهيِّئ نفوس السامعين لمرتبة الإنفاق، وما يلقاه المنفق في سبيل الله. ثم جاء الخطاب من خلال رسم صورة تشبيهية تمثيلية متحركة تنفذ إلى مكامن النفس البشرية:{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} البقرة:261]، فغدت عملية الإنفاق عملية معنوية تحمل معاني كثيرة. فالمعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة. وهذا العدد قد يراد منه الكثرة. وهذه الآية بمثابة التفصيل لما أجمل في قوله: (أنفقوا مما رزقناكم)[1] البقرة:245].

وإن إجمال المعاني وتفصيلها في العبارة أو العبارتين منتشر في عموم القرآن؛ لأن القرآن الكريم يفصل بعضه بعضاً، نحو قوله تعالى على الإجمال والتفصيل في العبارة الواحدة:

الإجمال	التفصيل	رقم الآية
(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)	(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)	49
(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)	(وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ)	253

وغير ذلك كثير.

الإجمال والتفصيل بين الآيات:

قال تعالى:{الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} البقرة:1-5] استهلت السورة بحروف مقطعة أنزلت للتنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف التي ألفوها، وهم عارفون بقوانين فصاحتها وبلاغتها. فلم يكن القرآن بمادته التي يتألف منها غريباً عليهم[2]، وهذه الحروف هي بعض رموز العربية، وهي رمز مجمل لبقية الحروف التي انتظم عليها أسلوب القرآن تأليفاً وتركيباً. فتحول الرمز إلى وقع شديد على نفوسهم التي ستفاجأ بما يعقبه من صريح الإعجاز بقوله:{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} البقرة:23] وكأن هذه الآية بداية تفصيل للرمز المفتتح به السورة[3]؛ وجاء قوله:(هدى للمتقين) على صورة الإجمال فالهداية (التوفيق الذي يختص به من اهتدى)[4] والاتقاء (افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة وشدة الاحتراس من المكروه... والمتقي اسم لمن يقي نفسه عما يضره في الآخرة وهي الشرك المفضي إلى العذاب المخلد)[5]. فلفظة (التقوى) مجملة وشاملة لمعطيات دلالية يحددها البيان التفصيلي في الآيات اللاحقة، من ذكر (الصلاة والصدقة لأن هاتين أمّ للعبادات البدنية والمالية، وهما المعيار على غيرهما... بان استغنى عن عدّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها)[6]. وهذا الإجمال في ذكر العبادتين وفي ذكر المتقين تزداد به اطلاعاً على أسرار القرآن وتتبين بتوفيقه تعالى لنكت التنزيل به، وصفات المتقين التي

(1) ينظر: الأمثال السائرة في القرآن، د. محمد عبد 94.
(2) ينظر: في ظلال القرآن 38/1. وتفسير العياشي 1 / 7.
(3) ينظر: التحرير والتنوير 201/1.
(4) المفردات: الراغب الأصفهاني 538.
(5) الكليات: لإبن موسى الحسيني الكفوي 38.
(6) الكشاف 39/1.

فصلت بقوله: (الذين يؤمنون بالغيب...) هي التي أوصلت من هذه عقائدهم وأعمالهم إلى درجة الفلاح[1]؛ ذلك أنهم جمعوا كل الصفات المجملة التي عبرت عن تمكن الهداية فيهم بما أجملته لفظة (المتقين) ومن ثم التفصيل لصفاتهم. وفي قوله:(يؤمنون بالغيب) قال الرازي: (يتناول الإيمان بالغائبات على الإجمال ثم بعد ذلك قوله:(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك...) يتناول الإيمان ببعض الغائبات؛ فكان هذا من باب عطف التفصيل على الجملة، وهو جائز كما في قوله تعالى:{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}البقرة:98])[2]. حيث (دخل جبريل وميكال في الملائكة لكنه أعاد ذكرهما لشرفهما)[3]. ومثل هذا الإجمال جاء قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة:26–29].وهذا تفصيل لما أشار إليه قوله: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...) والفاء لتعقيب المفصل على المجمل عطفت المقدر في قوله: (لا يستحي) أي لا يستحي من الناس على اختلاف حال انتفاعهم به، فنشأ في الكلام إجمال مقدر اقتضى تفصيل حال الناس؛ وإنما عطف بالفاء؛ لان التفصيل حاصل عقب الإجماع[4]. والكلام في قوله: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً...) جرى مجرى البيان. والتغيير للجملتين المصدرتين بـ(أما) على طريقة النشر غير المرتب؛ بأن أجمل أو جمع أو ألفّ أولاً ثم فصّل أو فرّق أو نَشر ثانيا: فجمع بين المؤمنين والكافرين في أول الآية، ثم فصل أو نشر بعد ذلك، على غير ترتيب الصفات؛ فذكر في النشر صفات الكافرين ثم المؤمنين على عكس ما ابتدأ به.

ومما أجمله التعبير القرآني أيضا تكريم الانسان بقوله:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة: 29] مجملة بذلك قصة آدم واستخلافه في الارض وقد ختمت بالعلم، ثم جاء تفصيل القصة بقوله:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا...} البقرة:30] بعد اجمالها بقوله: (خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ...) فوضعت قصة آدم في أنسب سياق لها وأعجبه من حيث التفصيل السياقي للقصة[5].

وجاءت عبارة(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) على الإجمال؛ وهي عبارة بنيت على حذف المفعول؛ لأن الامر يتعلق بالقدرة المطلقة لله تعالى وليس لتحديد المفاعيل؛ لأن صاحب هذه القدرة عنده العلم بكل شيء، وهذا التعبير القرآني جاء على طريقة العرب في الكلام (فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين فإذا كان الأمر كذلك، كان الفعل المتعدي كغير المتعدي مثلاً في أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظاً ولا تقديرا! ومثال ذلك قول الناس:(فلان يَحُل ويعقِد، ويأمر وينهى، ويَضر ويَنفع) وعلى هذا القياس جاء قوله تعالى:{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى. وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} [النجم:43–44] وقوله:{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى} النجم:48] والمعنى هو الذي منه الإحياء والإماتة والاغناء والاقناء)[6]. وبعد سؤال الملائكة لرب العزة عن حكمة خلق آدم واسكانه وذريته الارض أخبرهم سبحانه على وجه الإجمال بما يغنيهم عن التفصيل بقوله:(إني أعلم ما لا تعلمون) وتدرج الخطاب من المجمل إلى بعض بيان بقوله:(وعلم آدم الأسماء كلها) ثم زادهم بياناً وفصل لهم؛ فبين لهم فضل آدم وقصورهم عنه في العلم إذ أنبأهم آدم بالمسميات على وجه التفصيل دون الإجمال: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ} البقرة:31] فيتأكد ذلك

---

(1) ينظر: تفسير القرآن الكريم: محمد شلتوت 65-66.
(2) التفسير الكبير للرازي 32/2.
(3) زاد المسير: ابن الجوزي 105/1.
(4) ينظر: التحرير والتنوير 358/1.
(5) ينظر: التعبير القرآني د. فاضل السامرائي 254-255.
(6) دلائل الإعجاز 154.

الجواب الإجمالي بعد الجواب التفصيلي[1]. وجاء الخطاب:(وعلم آدم الأسماء...) بياناً لما أجمل في قوله:(إني أعلم ما لا تعلمون...) وزاد هذا البيان على المبين بقوله:(فقال أنبأوني بأسماء هؤلاء...)، وإنما جيء بالإجمال قبل ظهور البرهان وجيء بالتفصيل بعد ظهوره على طريقة الحجاج وهو إجمال الدعوى وتفصيل النتيجة. ونظيره قوله تعالى:{قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ... ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الكهف:78–82] ثم قال:{فَأَرَادَ رَبُّكَ} الكهف:82] فجاء باسم الإشارة البعيد تعظيماً للتأويل بعد ظهوره[2]. وقال ابن كثير في قوله تعالى:{قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ...} البقرة:30]: (إنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك)[3] فاستعلام الملائكة واستكشافهم لا يحتاج إلى جواب يفصل في ذلك.

وقد يكون من وجوه الخطاب القرآني للتفصيل هو تأكيد على أمر يكرر للتنبيه على أمر مهم، مثال ذلك أن القرآن كرر خطابه لبني إسرائيل في تنبيههم على تفضيله تعالى عليهم بالنعمة وإغداقها عليهم، ثم تفضيلهم على العالمين في زمانهم بقوله تعالى:{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} البقرة:47] تأكيداً لتذكيرهم بجواب الشكر، واهتماماً بمضمون الخطاب وتفصيلاً لما أسبغه عليهم من نعم أجملها الخطاب الأول:{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...} البقرة:40]. والخطاب موجه لبني إسرائيل المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله ذلك، أنّ شرف الأصول يسري إلى الفروع. وفي هذا التكرار توكيد للحجة عليهم وتحذيرهم من مغبة عدم اتباعهم الصادق المصدق لمن سبقه من الرسل، ولامتثال أوامره سبحانه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم[4]. و(لما كان الغرض المقصود من ذلك هو الامتثال كان حق البلاغة أن يفضي البليغ إلى المقصود ولا يطيل في المقدمة، وإنما يلم بها الماماً ويشير إليها إجمالاً... فكان الإجمال في المقدمة قضاء لحق صدارتها بالتقديم، وكان الإفضاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية والرجوع إلى تفصيل النعم قضاء لحقها من التعداد... وقوله (وأني فضلتكم على العالمين) عطف على (اذكروا نعمتي...) عطف خاص على عام وهو مبدأ لتفصيل النعم وتعدادها)[5] وقد شرع الخطاب القرآني في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل في الآيات:{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}البقرة:49–57]. وفي قوله تعالى:{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} البقرة:145].

جاء الإجمال هنا في (ما تبعوا قبلتك) فهو إجمال لا ينفع معه طول خطاب فلا حاجة معها إلى تفصيل اذ لا جدوى من إطناب الاحتجاج عليهم. كما أن قوله:(وما أنت بتابع قبلتهم) إجمال بيانه (وما بعضهم بتابع قبلة بعض...)[6]. والإجمال هنا جاء على وفق المفهوم البلاغي لمصطلح (الاستقصاء)* فالآية ذكرت أموراً ثلاثة:

أولاً: لا يتبعون قبلتك جزماً.

ثانياً: وأنت لم تتبع قبلتهم حتماً.

ثالثاً: وليس بينهم (يهود ونصارى) إلا الخلاف وعدم الإتباع.

---

(1) ينظر: التفسير الكبير 174/1، وإرشاد العقل السليم: أبو السعود 102/1، وفتح القدير 80/1.
(2) ينظر: التحرير والتنوير 404/1.
(3) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير 94/1.
(4) ينظر: تفسير البيضاوي 318/1، فتح القدير 102/1.
(5) التحرير والتنوير 466/1.
(6) ينظر: الكشاف 187/1، تفسير القرآن العظيم 267/1.
- الاستقصاء: (هو أن يتناول الشاعر معنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه)، تحرير التحبير 540

فانتهى الأمر معهم بهذه النقاط الثلاث. وأما قوله:(ولئن اتبعت أهوائهم...) فهو بعض تفصيل لتحذير الرسول صلى الله عليه وآله وأمته من اللين في أمر أراده الله تعالى.

واختصاراً نذكر بعضاً من ذلك في جدول:

الإجمال	التفصيل
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ... [68]	قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ... قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ...[68-71]
	قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [81]
	التفصيل
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً... [80]	قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ...[124-129]
الإجمال وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [124]	
	***
	أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [132-133]
	أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ

مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ... وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ...[184-185]

***

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[132]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[177]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ[183]

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ[191-193]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى... [189]

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ...[230]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ...الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى...يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...[274]

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[190]

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[227]

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...[264]

الإجمال والتفصيل بين السورة وما بعدها:

نفهم من جملة (هدى للمتقين) في مفتتح سورة البقرة:{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} 2] مفهوم (المخالفة) بأنّ غير المتقين ليس لهم من هدى القرآن نصيب: ففي الآية تعريض بالكافرين، وهذا التعريض المحذوفة عبارته فُصّل في سور أخرى نحو قوله تعالى:{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} فصلت:44] فصرح القرآن بما عرض بالكافرين.

وفي موضوع (الربا) أجمله الخطاب ابتداء بقوله تعالى:{قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...}البقرة:275] ثم زاده توضيحاً وبيانا بقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ. وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ...}البقرة:278ـ280] ثم التهديد والوعيد للذين يجتنبون ما أمروا به من ترك الربا بقوله تعالى:(فأذنوا بحرب...)، ثم ذكر الخطاب الطريق الصحيح في التعامل المالي بقوله:(وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم...)، ثم اتسع السياق وامتد، فأصبحت آيات سورة البقرة سياقاً للآية في سورة آل عمران:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ...}130] على أنها تعريض بغيرهم من المشركين ما زال منطقهم (إنما البيع مثل الربا)البقرة:275] من يهود مردوا على أكله واستحلاله، ولما يؤمنوا لينتهوا عنه، ومن منافقين آمن لسانهم وكفرت قلوبهم. ويعزز هذا الاستنباط ما ورد في سورة الروم:{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}39] فهنا تنفير من الربا وزجر عنه، وترغيب في الزكاة وحث عليها(1).

وفيما يأتي نبين ما أجمل وما فصل اختصاراً:

الآيات المجملة في سورة البقرة	تفصيلها في غيرها من السور
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [24]	إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ. لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ [الأنبياء:98- 100]
الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ...[27]	فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ. أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا[محمد:22-24]
	وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ [هود:114]، أَقِمِ

(1) ينظر: التعريض في القرآن، د. إبراهيم محمد الخولي 100-101.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ{238} الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ الاسراء:78]، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ [طه:130]، فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ...وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ[الروم:17]

وهناك حالة أخرى ترد في مواضع من القرآن أُوثر فيها الإجمال على التفصيل لانتفاء حاجة البيان في الحال؛ فشأن القرآن الإجمال في السؤال ثم إما أن يفصل الأهم للمخاطب وإما أن يراد تفصيله في القادم من القرآن منها: قوله تعالى في سورة البقرة:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[197] فكنى بالرفث عن الجماع؛ لاستكراه نشره بين الناس. وتمثل الآية استئنافاً ابتدائياً للإعلام بتفصيل مناسك الحج الذي فرض على وجه الإجمال في سورة آل عمران:{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا}[97] قال أبو حيان: (لما نزلت: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [85] قالت اليهود نحن على الاسلام فنزلت(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...) قيل له: حجهم يا محمد وإن كانوا على ملة إبراهيم التي هي الاسلام، فليحجوا إن كانوا مسلمين فقالت اليهود: لا نحجه أبدا، ودلت هذه الآية على تأكيد فرض الحج، إذ جاء ذلك بقوله:(ولله على الناس...) فيشعر بأن ذلك له تعالى، وجاء بـ(على) الدالة على الاستعلاء، وجاء متعلقاً بالناس بلفظ العموم وإن كان المراد منه الخصوص)[1]، فآية البقرة بينت أعمال الحج وتفصيلاته، وهو بيان مؤخر عن المبين. ولأجل ما يعتري الحج وظروفه من أحوال الجدال وغيره كانت هذه الآية مجملة فيما يعترض الناس في حجهم من جدل وبيان تفصيلات ذلك في أدلة أخرى[2].

وفي قوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[البقرة:91].

جملة: (تقتلون) أي قتلتم فوضع المستقبل موضع الماضي؛ لأن الوهم لا يذهب إلى غيره[3]. وانشدوا قول الحطيئة:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه أنّ الوليد أحق بالعذر[4]

(وفائدة سوق الماضي في موضع المستقبل، الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي وقع، وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأنّ الأمر مستمر)[5] وهذا استحضار لصورة الماضي كأنه حاضر، وقد يكون –والله أعلم– أنّ قوله:(آمنوا بما أنزل الله) مطلق فيما أنزل الله من الكتب السماوية دون التقييد بكتاب معين كما جاء على لسانهم:(قالوا نؤمن بما أنزل إلينا)[6]. فجاء التعبير القرآني هنا على صورة الإجمال دون عرض التفاصيل لانتفاء الحاجة إليها، وذلك هو كلام الملوك لا يتنزل إلا بقدر معلوم. فما بالنا بكلام ملك الملوك تعالى، ومن هنا عيب على امرئ القيس تفصيله في غير موضع التفصيل، وذلك فيما هو معدود من أجود شعره[7]:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ
فتوضحَ فالمقراةِ لم يعف رسمها	لما نسجَتْها من جنوب وشمألِ

اذ لم يقنع في وصف المنزل بقوله (بسقط اللوى) حتى حده بحدود أربعة[8].

(1) البحر المحيط 11/3، 12.
(2) ينظر: التحرير والتنوير 227/2.
(3) ينظر: زاد المسير 100/1.
(4) ديوان الحطيئة 68/1.
(5) المحرر الوجيز 179/1.
(6) ينظر: الكشاف 152/1، وفتح القدير 142/1.
(5) شرح المعلقات العشر للزوزني 30،29.
(8) ينظر: النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز 119، والهامش الرقم (1) ص126.

والإجمال والتفصيل له صورته في التعبير القرآني؛ كأنما هو (فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعا، فإذا نظرت الى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف بهرتك كلها)[1] كقوله تعالى:{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ...}[البقرة:212] فهذه الآية المعجزة ذات مرونة وتأويل لا حصر لها (ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء على هذه الآية رأى من ذلك العجب العجاب)[2] ومن استقصاء الأحوال على وجه الإجمال قوله تعالى:{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ...}[البقرة:221] نجد أن كلمة (لو) جاءت (لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم، على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته على ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية، لما أن الشيء متى تحقق مع المنافي القوي، فلأن يتحقق مع غيره أولى؛ ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفي عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها كأنه قيل: لو لم تعجبكم ولو أعجبكم)[3].

{المتشابه اللفظي}

قال السيوطي:(والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، بل تأتي في موضع واحد مقدما، وفي آخر مؤخراً)[4] وهذا من بلاغة القرآن في التراكيب والآيات المتشابهة وذكر أمثلة كثيرة عن المتشابه اللفظي في القرآن، كقوله تعالى في سورة البقرة:{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ...} [58]، وفي سورة الأعراف جاء قوله تعالى:{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ}[161]، وقوله:{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ...}[البقرة:173] وفي المائدة قال تعالى:{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ... فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[5] [3]. ومنه ما ورد في سورة البقرة من قصة خلق آدم ﷺ وتكريمه حيث قال تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[29-39]، وقال في سورة الأعراف في معرض معاتبة بني آدم:{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ. وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ... وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ

(1) النبأ العظيم 117.
(2) م. ن 118.
(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 259/1.
(4) الإتقان 705.
(5) ينظر: الإتقان 705-706.

الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ. يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[10–27]. فقوله تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ}[البقرة:29] إجمال لقصة آدم من ناحية، وإجمال لركني الاستخلاف وهما: حق آدم وذريته في التصرف، والتدبير والقدرة على هذا التصرف، فتكون قصة آدم هنا وقعت في أنسب سياق لها وأعجبه، هذا من حيث التفصيل السياقي للقصة، وأما من حيث الإجمال، فإن القصة مبنية على تكريم آدم عليه السلام وكل ما فيها من ألفاظ ومواقف مبنية على هذا التكريم. أما القصة في سورة الأعراف فقد وردت في مقام العتاب ومؤاخذة بني آدم على قلة شكرهم وقد وقعت في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم حيث جاء قبلها:{وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ. فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}[الأعراف:4–5] ومما يعضد ما ذكر أنه في سورة البقرة أسند الخطاب إلى ضمير العظمة:(قلنا) وهذا يقوله القرآن في مقام التكريم والتعظيم في حين جمع الخطاب في سورة الأعراف بين طرد إبليس وإسكان آدم عليه السلام بقول واحد وهو لفظ (قال) بإسناد القول إلى الغائب بقوله تعالى:{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[18–19] فلم يفرد آدم بقول[1].

وكذلك ورد في سورة البقرة من المتشابه اللفظي قوله تعالى:{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ...}[49] وفي سورة إبراهيم قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ...}[6] فقال في سورة إبراهيم (ويذبحون)؛ لأن هذه السورة مبنية على الإجمال والإيجاز فيما تضمنته من قصص الرسل وغير ذلك ولم يقصد فيها بسط قصة كما ورد في غيرها مما بني على الاستيفاء وتأمل المقصدين –أي الإجمال والتفصيل– فقد ورد في سورتي الأعراف وهود، قصص نوح وهود وصالح ولوط وموسى عليهم السلام. وقد مدّ أطناب الكلام في السورتين ثم أوجز الكلام في سورة القمر أبلغ إيجاز وأوفاه بالمقصود، فلما كان مبنى سورة إبراهيم عليه السلام على الإجمال والإيجاز فيما تضمنت من هذه القصص افتتاحاً واختتاماً بقوله:{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}[إبراهيم:9] وما بعد هذا من الآي وأنه انظم في هذه السورة إلى قصد الإيجاز تغليظ الوعيد، فلبنائها على هذين الغرضين ورد فيها:(ويذبحون أبنائهم ويستحيون نسائهم...) فعين بالذكر أشد وأعظم هذه الابتلاءات وجاء به معطوفاً:(ويذبحون) وهو مما أجمل أولا وشمله الكلام المتقدم كما ورد في قوله تعالى:{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} ثم قال:(وجبريل وميكال)[البقرة:98] فخصهما بالذكر بعد إجمالهما بشرفهما وعلوهما. فالوارد في سورة إبراهيم من هذا القبيل[2]. واما إعراب آية البقرة فيمكن في قوله:(يذبحون) (أن يحمل على البدل وعلى الاستئناف وهو الأولى، وكأن قد قيل وما ذاك؟ فقيل يذبحون أبناءهم، ولا إشكال في الأخرى)[3]. وجاء في أسرار التكرار للكرماني: (قوله: يذبحون[49] بغير واو هنا على البدل من يسومونكم)[4].

---

(1) ينظر: التعبير القرآني 254-256.
(2) ينظر: ملاك التأويل 201/1-202.
(3) م. ن 202/1.
(4) أسرار التكرار: الكرماني 17.

وفي مناسبة عموم السياق لعموم اللفظ نجد قوله في الأعراف:{وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ...}[الاعراف:141] أن القتل أعم من الذبح في آية البقرة السابقة [49] وأن القصة في الأعراف بنيت على العموم والتفصيل قبل مجيء موسى عليه السلام وبعده: {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا...}[129]، وقوله:{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ}[130] وتستمر القصة بذكر التفاصيل فناسب العموم في الأعراف العموم في اللفظ، وهو التقتيل، في حين لم يرد ذكر فرعون مع بني إسرائيل ولا فتنته لهم إلا قوله:{يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ}[البقرة:49][1].

ومن تناسب الاجمال لمثله في البقرة ومناسبة التفصيل في الأعراف قوله في البقرة:{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ}[51] وقوله في الاعراف:{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...}[142]. ذلك أن (السياق في الأعراف في تفصيل ما حصل في هذه المواعدة؛ فقد قال {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ... وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي... وكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[142-145] في حين أن السياق في البقرة كان مجملاً؛ فإنه لم يتعد آية واحدة أو جزء من آية وهي قوله تعالى:{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ}[51] فناسب التفصيلَ التفصيلُ والاجمالَ الاجمالُ)[2].

وفي مناسبة الاجمال للإفراد ومناسبة التفصيل للجمع قوله تعالى:{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً...}[البقرة:80] وقوله:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...}[آل عمران:24] نجد أن التعبير القرآني أفرد الوصف في البقرة وجمعه في آل عمران[3] والسبب –والله أعلم– أن في البقرة إجمال وفي الأخرى تفصيل وإطالة حيث أخبر عنهم في آل عمران اغترارهم:{وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[24] وهذا بسط لحالهم ولم يقع في البقرة تعرض لشيء من ذلك، بل أجمل القول ولم يذكر سببه، فناسب الإفراد الإجمال وناسب الجمع التفصيل ولو عكس الأمر لما ناسب[4].

المبحث الثالث

سورة آل عمران

بين يدي السورة:

يظهر من خلال الثمانين آية الأولى أنها مفصلة لمقصود السورة، وهي مناظرة وفد نجران[5]، ومطلع هذه السورة موحٍ بفكرتها؛ كأنه إيجاز لما سيفصله القرآن، ومتصل بها شديد الاتصال؛ فقد افتتحت بقوله تعالى:{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[2] وقد عالجت السورة أمر عيسى عليه السلام ونزهت الله عن الولد؛ وذلك ما يشبه ما نسميه براعة استهلال[6]. ولما كانت فاتحة الكتاب جامعة للدين إجمالاً؛ جاء التفصيل هنا مبيناً ذلك بحقيّة المعنى والنظم. وأفهمنا إلى أنه سبحانه بيده ملكوت كل شيء وأنه واحد لا شريك له وأنه حي قيوم، فصرح في أول هذه السورة ما أفهمته أواخر التي قبلها.

وهذا يؤكد أن القرآن لا ينفك يرتبط بعضه ببعض آيات وسوراً، مقدمات وخواتم، أغراضاً وأهدافاً، وهذه علامات أسلوبية تأخذ بالنص الكامل، وتبحث عن مظاهر العلاقة بين الأسلوب والفكر، وتبحث عن مظاهر الوحدة الموضوعية فضلاً عن البناء الأسلوبي الجمالي، إذ نجد ذلك فيما يسمى بـ:(تناسب الأطراف) الذي هو موضوعنا الذي نحن على أعتابه.

---

(1) ينظر: أسئلة بيانية: د. فاضل السامرائي 12.
(2) م. ن 14.
(3) فمن المقرر في اللغة أن الجمع الموصوف بالمفرد من غير العاقل -معدودة- يعني أنه أكثر من الموصوف بالجمع السالم – معدودات -، على طريق التفسير البياني د. فاضل السامرائي 18/1.
(4) ينظر: ملاك التأويل 226/1.
(5) ينظر: بصائر ذوي التمييز 195/1.
(6) ينظر: التعبير الفني في القرآن، د. بكري الشيخ أمين 213.

- **تناسب الأطراف:**

تناسبت أوائل سورة آل عمران مع أواخرها، فذكر في أول السورة إنزال القرآن والتوراة والإنجيل:{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ...}[3-4] وكان من آخرها قوله:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ...}[199]، وفي أوائل السورة جاء قوله:{رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[9] وفي أواخرها جاء قوله:{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[194][1].

كما جاء في أوائل السورة: دعاء المؤمنين:{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[8]، وتهوين شأن الكفار وبيان مصيرهم:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ}[10] ثم جاء في أواخرها بمثل ذلك من دعاء المؤمنين وتهوين شأن الكافرين بقوله تعالى:{رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ... لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[192-195]، وهكذا نجد تناسب مطلع السورة ومقطعها واضح جلي[2]. ونجد في هذه السورة ما يحدد لأهل الإيمان مواقفهم من الكافرين، وتعلمهم سبل الهداية نحو الارتقاء إلى مقام المتقين[3]:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ}[26]، وقوله:{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ}[29]، وقوله:{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}[31] وقوله:{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[32].

وإذا ما تبين لنا تناسب مطلع آل عمران بمقطعها؛ فإن بين سورتي البقرة وآل عمران من التناسب ما لا يخفى للمتأمل ويضع السيوطي قاعدة في خواص القرآن: (إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسباً لأولها، وآخر آل عمران مناسباً لأول البقرة فإنها افتتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون، وختمت آل عمران بقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[200]، وافتتحت البقرة بقوله:{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}[4] وختمت آل عمران بقوله:{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ...}[199])[4] ويلاحظ أن التعبيرين في السياقين جاءا على الإجمال والاختصار، وهذا شأن مطالع السور وخواتمها. وفيهما إشارة أيضاً إلى أن سورة آل عمران فيها بيان لما في البقرة.

ومن أوجه التناسب بين السورتين قوله تعالى في ختام البقرة الذي جاء على أسلوب الدعاء المبسط، والذي يبدأ بمقدمات يتهيأ فيها العبد للطلب، كما هي عليه سورة الفاتحة حيث قال تعالى:{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ... رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا...}[285-286] ثم جاء في أوائل آل عمران قوله تعالى:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[12].

وقد ترتبط خاتمة السورة بفاتحة السورة التي بعدها فإن آل عمران ختمت بكلام موجز مفاده الأمر بالتقوى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[200] وكأن هذا الكلام الموجز خلاصة لموضوع السورة ووصايا يذكرنا

---

(1) ينظر: قطف الأزهار 675/1، مراصد المطالع: السيوطي 91.
(2) ينظر: جواهر البيان 28.
(3) ينظر: الأساس: سعيد حوى 722/2.
(4) أسرار ترتيب سور القرآن 33-34.

بها ربنا تعالى لِما لها من شأن عظيم ينفع المؤمنين فافتتحت التي بعدها بقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ...}[النساء:1].

الإجمال والتفصيل في السورة:

- الإجمال والتفصيل في العبارة الواحدة:

إن قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا...}[7].

يبين المتشابه إجمالاً ويفصل في أمر اقتضاه السياق فقوله تعالى:(مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ) كلام جاء على سبيل الإجمال ثم فُصل في قوله تعالى:(هن أم الكتاب...) على طريقة الجمع والتقسيم أو الإجمال والتفصيل. وقد بين ابن عاشور التفصيل في قوله تعالى:(منه آيات محكمات وأخر متشابهات) بأنه (تفصيل الإجمال اقتضاه الكلام السابق؛ لأنه لما قسّم الكتاب إلى محكم ومتشابه، وكان ذلك التقسيم باعتبار دلالة الألفاظ على المعاني، تشوفت النفس الى معرفة تلقي الناس للمتشابه. أما المحكم فتلقي الناس له على طريقة واحدة، فلا حاجة إلى تفصيل فيه، واقتصر في التقسيم على ذكر قسم من أقسامه: وهو حال الذين في قلوبهم زيغ كيف تلقيهم للمتشابهات؛ لأن بيان هذا هو الأهم في الغرض المسوق له الكلام، وهو كشف شبهة الذين غرّتهم المتشابهات ولم يهتدوا إلى حق تأويلها. ويعرف حال قسيمهم وهم الذين لا زيغ في قلوبهم بطريق المقابلة ثم سيصرّح بإجمال حال المهتدين)[1].

وقد يأتي التشبيه للبيان كما في قوله تعالى:{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[59].

فالخطاب في مقام الاستئناف البياني ومحل التمثيل فيه كون أن آدم وعيسى عليهما السلام خلقا من دون أب ويزيد آدم كونه خلق من دون أب ولا أم وإنما بكلمة من الله سبحانه وتعالى بقوله:(كن فيكون) مع بيان كونه أقوى في المشبه به على الغالب، فقصد بالمشبه به مزيد بيان لتفنيد أوهام النصارى وأباطيلهم حول تأليه عيسى[2].

وإذا كان الخطاب القرآني مع المجادلين في الحق على طريقة التفصيل والاقناع، وإظهار الحجة عليهم؛ فإن الخطاب مع المؤمنين يسلك فيه القرآن مسلك التعميم؛ نحو قوله تعالى:{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [97]. فقوله:(مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) فيه عموم، وإذا انعكس خطاب ما كان من المؤمنين دعاء وطلباً جاء التفصيل بعد مقدمة مجملة، نحو قوله تعالى:{رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}[193].

والبدل في البلاغة طريقة من طرق البيان والإيضاح لأن البدل يعطي معنى زائداً. ففي قوله تعالى:{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[178] جاء قوله:{أَنَمَا نُمْلِي لَهُمْ} (بدل اشتمال من (الذين كفروا)، فيكون ساداً مسد المفعولين؛ لأن المبدل منه صار كالمتروك، وسلكت طريقة الإبدال؛ لما فيه من الإجمال ثم التفصيل؛ لأن تعلق الظن بالمفعول الأول يستدعي تشوف السامع للجهة التي تعلق بها الظن، وهي مدلول المفعول الثاني، فإذا سمع ما يسد مسد المفعولين بعد ذلك، تمكن من نفسه فضل تمكن وزاد تقريراً وقوله:(أنما نملي لهم ليزدادوا إثما) استئناف واقع موقع التعليل للنهي عن حسبان الإملاء خيراً، أي ما هو بخير؛ لأنهم يزدادون في تلك المدة إثماً)[3].

(1) التحرير والتنوير 3/21-22.
(2) م. ن 3/111-112.
(3) التحرير والتنوير 3/291.

– الإجمال والتفصيل بين الآيات:

ومن مظاهر الإجمال في الخطاب القرآني أنه يجمل ومن ثم يفصل ثم يعود مجملاً لأمر آخر ثم يفصله على طريقة تحتاج إلى إمعان النظر في تتبع النص في بيان هذه الطريقة نحو قوله تعالى:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ}[آل عمران:12–13]. نجد هذا التهديد والوعيد أطنب عبارة وابلغها، ذلك أن المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة والتفكير بوصف يوم كان عليهم يعلمونه، وبعد هذا الإطناب نجد قوله:(فِئَةٌ تُقَاتِلُ) تفصيل للفئتين وهو مرفوع على أنه صدر جملة للاستئناف في التفصيل والتقسيم الوارد بعد الإجمال والجمع وقوله:(وَأُخْرَى كَافِرَةٌ) تحمل شروعاً في تفصيل ما أجمل في قوله:(فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا)(1) وطريقة الإجمال ثم التفصيل في هذه السورة كثيرة ومتواصلة منها على سبيل إيضاح الفكرة قوله تعالى:{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}[28] للتوكيد والتحريض على الخوف من الله ﷻ على سبيل الإجمال، وتفصيلها وبيانها في قوله تعالى:{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [29] فانتقل التعبير القرآني من التحذير المجمل إلى ضرب من ضروب تفصيله بالإشعار أن الله سبحانه مطلع على ما يخفى من الأمر، وقوله:{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} عموم وإجمال والشيء في كلام العرب موجود وهذا بيان لقوله:(إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً) (2).

وقوله تعالى:{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[32] عاد إلى الموعظة بطريق الإجمال البحث، فذلكة للكلام وحرصاً على الإجابة، فابتدأ الموعظة أولاً بموعظة:{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[10] ثم شرع في الموعظة:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[12] على طريقة الترهيب، ثم بذكر ما يقابله من الترغيب:{قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ}[15] ثم بتأييد ما عليه المسلمون بقوله:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[18] وفي ذلك تفصيل كبير ثم جاء الخطاب بطريق المجادلة:{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}[20] ثم بالترهيب على طريق الإيماء إلى الدليل:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[21] ثم بطريقة التهديد والإنذار التعرضي:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ}[26] ثم أمر بالقطيعة في قوله:{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}[28] وختم بذكر عدم محبة الكافرين وهذا ما يسميه البلاغيون بمصطلح رد العجز على الصدر المتقدم في قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ}[10] ليكون نفي المحبة عن جميع الكافرين نفياً عن هؤلاء الكافرين المعنيين(3).

ومن دواعي التفصيل لأمر ذي شأن كبير في العقيدة أن يمهد له ثم يُتخلص إليه لبيانه وتفصيله كما هو التمهيد لمحاجة وفد نجران بقوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}[33] فابتدأ هنا بذكر آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران والغرض من ذكر هؤلاء تذكير اليهود والنصارى بشدة انتساب أنبيائهم إلى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله فما ينبغي أن يجعلوا موجب القرابة موجب عداوة وتفريق(4).

---

(1) التحرير والتنوير 43/3 بتصرف.
(2) ينظر: البحر المحيط 448/2، والمحرر والوجيز 421/1، وفتح القدير 417/1-418.
(3) ينظر: الكشاف 31/1، والتحرير والتنوير 82/3.
(4) ينظر: التحرير والتنوير 82/3.

وتستمر الآيات في سورة آل عمران في خطاب نبي الله عيسى عليه السلام وقومه بقوله تعالى:{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ [55–58] فقوله:{فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} تفصيل لما أجمل في قوله:(إن الذين يكفرون بآيات الله...)، وقوله:(إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم...) والمقصود من هذا الوعيد عذاب الآخرة لأنه وقع في حيز تفصيل الضمائر من قوله:(فأعذبهم عذاباً شديدا...) فذكر عذاب الدنيا هنا إدماج وتتحمل الآية نوعين من الخطاب، فإن كان هذا خطاباً عاماً للرسول صلى الله عليه وآله وأمته يراد منه أيضاً التعريض بالمشركين في ظلمهم محمداً صلى الله عليه وآله عن مكابرة وحسد وعبارة (ما لهم من ناصرين) تذييل لجملة (أعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة) أي لا يجدون ناصرين ينصرونهم. علينا في تعذيبهم الذي عذبهم الله تعالى، وجاءت جملة (والله لا يحب الظالمين) تذييل ثان لقوله: (ما لهم من ناصرين) بصريح معناها ولقوله:(والله لا يحب الظالمين) بكناية معناها؛ لأن انتفاء محبة الله للظالمين يستلزم أنه يحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلذلك يعطيهم ثواباً وافياً ففي الكلام اكتفاء أي ويحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات(1).

وفي قوله:(ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) (تذييل: فإن الآيات والذكر أعم من الذي تلي هنا، واسم الإشارة إلى الكلام السابق من قوله تعالى:{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}[آل عمران:45] وتذكير اسم الاشارة لتأويل المشار إليه بالكلام أو بالمذكور. وجملة نتلوه حال من اسم الإشارة على حد (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) [هود:72] وهو استعمال عربي فصيح وإن خالف في صحة مجيء الحال من اسم الإشارة بعض النحاة)(2). ثم استؤنف الكلام بقوله تعالى:{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران:59] لبيان ما نشأ من أوهام النصارى في تأليه عيسى وإبطال عقيدتهم، وقوله:(خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) تفسير للمثل في قوله:(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ...) لإزالة ما في الكلام من إبهام وخفاء(3).

وبعد هذا التمهيد للمحاجة جاء التفصيل في ذلك بقوله تعالى:{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ.... قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[آل عمران:60–84] وبهذا النص بيّن القرآن بأوضح برهان وأقوى محاجة بسطتها الآيات كذب ادعاءاتهم وتطاول ألسنتهم فجاء التعبير القرآني في بيان هذه المحاجة على أعلى صورة من صور البلاغة تمهيداً للقصة وحسن تخلص إلى تفصيلاتها.

وفي قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[آل عمران: 91–92].

قوله:(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار...) استئناف لبيان حال الكفار الذين ماتوا على الكفر نشأ عن حكم فريق من الكفار تكرر منهم الكفر حتى رسخ فيهم وصار لهم ديدناً. وقوله:(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ) تذييل قصد به تعميم أنواع الانفاق وتبيين أن الله لا يخفى عليه شيء من مقاصد المنفقين(4).

(1) ينظر: فتح القدير 435/1، التحرير والتنوير 110/3.
(2) التحرير والتنوير 111/3.
(3) ينظر: فتح القدير 435/1، التحرير والتنوير 111/3-112.
(4) ينظر: التحرير والتنوير 155/3.

وفي قوله تعالى:{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[آل عمران:106-107].

عرف هذا اليوم ببياض وجوه وسواد وجوه أخرى بكلام مجمل؛ وذلك لتهويل الأمر وتشوف النفس لما يرد من تفصيل لأصحاب هذه الوجوه المبيضة، فالوجوه المسودة: ترهيب لفريق وترغيب لفريق آخر. وبيان تفصيل تلك الوجوه المسودة ترهيباً لفريق آخر فقوله:(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ...) تفصيل لما أجمل قبل (أما) وقدّم البياض عند ذكر اليوم تشريفاً لذلك اليوم ثم قدّم في التفصيل سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساءتهم. وفي الكلام مطابقة بين بياض وجوه وسواد وجوه، وفي التفصيل المذكور سلك القرآن فيه طريق النشر المعكوس. وفي الكلام إيجاز. وأصل الكلام: فأما الذين اسودت وجوههم فهم الكافرون يقال لهم أكفرتم... ألخ. وأما الذين ابيضّت وجوههم فهم المؤمنون وفي رحمة الله هم فيها خالدون[(1)].

وفي قوله تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [133-134].

ورد ذكر المتقين في هذه الآية على صورة الإجمال ثم شرع الخطاب في تفصيل ما للمتقين من مزايا تحلوا بها:(الذين ينفقون...) وظاهر الآية أنها مدح بفعل المندوب إليه (السّرّاء) اليسر و(الضّرّاء) العسر. وجاء تخصيص (السراء والضراء) للخروج إلى مقصد بلاغي في سر الطباق الحاصل بين المفردتين وارتباطهما بالإنفاق. ويمضي السياق التفصيلي في مخاطبة النفس التقية، وتفصيل صفاتها (والكاظمين، والعافين)[(2)].

وجاء قوله:{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} على وجه العموم والاجمال في الحكم.

ثم استؤنف الكلام في قوله تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[110] لبيان حال هذه الأمة المفضلة على غيرها من الأمم على الاطلاق. وقوله:(وتؤمنون بالله) كلام على الاجمال يتعلق بكل تفاصيل الايمان من كتاب وحساب وجزاء. ولم يصرح به تفصيلاً لأن ما عليه المؤمنون من الايمان بالله تعالى حقيقة، وأن ما سواه كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان به تعالى في شيء[(3)].

- **تفصيل آل عمران لبعض ما أجمل في البقرة:**

لما جاء افتتاح البقرة بنفي الريب عن الكتاب:(ذلك الكتاب لا ريب فيه)[1] جاء في آل عمران قوله تعالى:{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}[3] وذلك بسط وإطناب لنفي الريب عنه. وجاء إنزال الكتاب مجملاً في البقرة، وفي آل عمران قسم إلى محكم ومتشابه:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}[7] وقوله:{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}[البقرة:4] جاء على الايجاز، وفصله في آل عمران فقال:{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ...}[3-4] فجاء الكلام مفصلاً بعد إجمال. وصرّح بذكر الإنجيل هنا؛ لأن السورة خطاب للنصارى ولم يقع التصريح به في سورة البقرة؛ وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة لأنها خطاب لليهود. وقد جاء ذكر القتال في سورة البقرة مجملاً في قوله تعالى:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[190] وقوله:{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ...}[البقرة:216] وفي آل عمران جاء تفصيل ذلك بذكر قصة أحد بكمالها:{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ... إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ... وَلَئِنْ

(1) ينظر: التحرير والتنوير 185/3.
(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 206/4.
(3) ينظر: فتح القدير 467/1.

مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ}[152-158] ثم أوجز في البقرة ذكر المقتولين في سبيل الله:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}[154] وزاد في آل عمران:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[169-171] وذلك إطناب عظيم. وجاء الكلام موجزاً في البقرة في قوله:{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ}[247] ومفصلاً في آل عمران بقوله:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[26] فزاد هنا إطناباً وتفصيلاً.

وأوجز الخطاب القرآني في البقرة ذكر الربا:{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}[276] وزاده تفصيلاً في آل عمران بقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[130-131] فبين هنا وبسط. وفي شأن أهل الكتاب أجمل (قليلاً) بقوله:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ... ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ}[البقرة:83] ثم فصله في آل عمران:{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ...}[113-114] وجاء الخطاب في البقرة تعريضاً:{قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ...}[139] فدل على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضاً لا تصريحاً، وجاء قوله:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...}[البقرة:143] في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام، ثم أتى في سورة آل عمران بصريح البيان فقال:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}[110] فقوله:(خير أمّة) أكثر تصريحاً في قدم ذلك من(جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) ثم زاد في وجه الخيرية بقوله:{تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}[آل عمران:110] وفي البقرة أجمل الخطاب في قوله تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[188] ثم بسط الوعيد في سورة آل عمران بقوله تعالى:{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[75-77] ولما استعار الشراء لاستبدال الباطل بعهد الله رشح هذه الاستعارة بقوله:(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ) وكأن نقض العهد عندهم كان على وجه الحقيقة في رأيهم(1). لأن من بلاغة الاستعارة ان يُتناسى التشبيه الذي هو قاعدة الاستعارة. وتناسي التشبيه معناه: اقتراب المجاز من الحقيقة مبالغة في البيان وكشف صورة المعنى.

وفيما يأتي أمثلة أخرى لتفصيل آل عمران لما أجمل في البقرة إيجازاً:

آيات مجملة في البقرة	تفصيلها في آل عمران
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [78-79]	وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [78]

(1) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن 30 وما بعدها.

آيات مجملة في البقرة	تفصيلها في آل عمران
وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ [89]	وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [81]
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ [105]	وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [69]
بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [112]	
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [127]	أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [83]
وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [130]	إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا... [96] قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [95]
لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ... [177]	لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ [92]

المبحث الرابع

سورة النــساء

بين يـدي السورة:

استهلت السورة بخطاب عام شامل للمؤمنين والمشركين ذكورهم وإناثهم، فالكل مأمور بالتقوى. وهذه الصلة الجامعة في الخطاب تمثل براعة استهلال مناسبة لأغراض السورة الأصلية، فكان هذا بمنزلة الديباجة للسورة(1):{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ}[النساء:1] كما ناسب مطلعها مقطع ما قبلها في الأمر بالتقوى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[آل عمران:200] (ومقصود السورة الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه آل عمران. والكتاب الذي حدّت عليه البقرة لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة)(2)، يقول السيوطي:(هذه السورة أيضاً شارحة لبقية مجملات سورة البقرة)(3). كما أن هناك أموراً أخرى

(1) ينظر: البحر المحيط 153/3، وجواهر البيان 28، والتحرير والتنوير 8/4.
(2) نظم الدرر 204/2.
(3) أسرار ترتيب سور القرآن 35.

أجملت في آل عمران وجاء تفصيلها في هذه السورة وسنذكر ذلك في مضان البحث. وسورة النساء بأسلوبها وجوّها الخاص بها توجه إلى محو ملامح المجتمع الوثني وتعمل على نبذ رواسبه مقابل بناء مجتمع إسلامي جديد له شخصيته الخاصة، كما تعمل على استجاشة الدفاع عن كينونة هذا المجتمع وبيان منهجه ورصد أعدائه والتحذير منهم(1).

ونجد الخطاب القرآني واعظاً لأهل الكتاب من النصارى بقوله:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ... وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا...}[النساء:171-173].

فقوله:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} استئناف ابتدائي بخطاب موجه إلى النصارى خاصة. فإنهم خوطبوا بعنوان أهل الكتاب تعريضاً بأنهم خالفوا كتابهم. وقرينة أنهم المراد هي قوله:{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ... لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ...} فإنه بيان للمراد من إجمال قوله:{لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} استعارة إذ شبه غلوهم وتجاوزهم الحد بغلوة السهم وهي منتهى اندفاعه فإذا اندفع السهم فهو أعمى يصيب الذي أمامه. فهي استعارة لطيفة. فهم تجاوزوا المألوف في غلوهم وابتدأت موعظتهم بالنهي عن الغلو؛ لأن النصارى غلوا في تعظيم عيسى عليه السلام فادعوا بنوته لله سبحانه، وجعلوه ثالث الآلهة. وقوله:(انتهوا خيرٌ لكم) تضمن الوعد والوعيد في حشرهم، مما يقتضي الثواب والعقاب وهذا إجمال تفصيله فيما بعد بقوله:{وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا...} فالثواب لمن آمن والعقاب لمن استنكف عن عبادته تعالى، وفي قوله تعالى:{إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ...} اشتمل التفصيل على الفريقين في حين اشتمل المفصل على فريق واحد، وذلك بدلالة التفصيل عليه، أي أنه فصل في أمر يدل عليه الآخر فاكتفى به(2).

- **تناسب الأطراف:**

جاء في خاتمة آل عمران:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[200] فخص المؤمنين بالخطاب. ثم افتتحت النساء بقوله:{يا أيها الناس..} [1]، فكان الخطاب عاماً والتكليف أيسر من سابقه في آل عمران التي ختمت بالأمر بالتقوى. وافتتحت سورة النساء بعدها به. وذلك آكد وجوه المناسبات في ترتيب السور. وهذا من تناسب الاطراف(3).

وهناك في الشعر ما يقرب من هذا الاسلوب، ويسمى عند أهل البديع (بالتسبيغ) كقول ليلى الأخيلية(4):

إذا نزل الحَجّاج أرضاً مريضـــةً تَتَبَّعَ أقصى دائها فَشَفَاها

شَفَاها من الداءِ العُضال الذي بها غلام إذا هزَّ القَناةَ رَواها

رواها فأرواها بشرب سجالهـــا دماءَ رجالٍ حيث نال حشاها

حيث تعلقت آخر كلمة من البيت الاول بأول كلمة بالبيت الثاني على تناسب لفظي بديعي. وفي علاقة النساء بفاتحة الكتاب، يقول السيوطي:(وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة في تفسير (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)[7] في قوله:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء:69])(5).

وفي مناسبة مطلع السورة لمقطعها قال الرازي:(هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف؛ وذلك أنه تعالى أمر الناس في أول هذه السورة بالتعطف على الأولاد والنساء والايتام، والرأفة بهم وإيصال حقوقهم إليهم وحفظ أموالهم عليهم. وبهذا المعنى ختمت السورة، وهو قوله:{إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا

(1) ينظر: في ظلال القرآن 555/1.
(2) ينظر: التحرير والتنوير 330/4 وما بعدها.
(3) ينظر: أسرار ترتيب القرآن 36، الأساس 978/2.
(4) ديوانها ص121، وقد وجدت رواية الأبيات في الديوان: إذا هبط الحجاج...
سقاها دماء المارقين وعلّها إذا جمعت يوماً وخيف أذاها
(5) أسرار ترتيب القرآن 36.

اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا...}[176] وذكر في أثناء السورة أنواعاً أخر من التكاليف، وهي الأمر بالطهارة، والصلاة، وقتال المشركين. ولما كانت هذه التكاليف شاقّة على النفوس لثقلها على الطباع، افتتحت السورة بالعلّة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة؛ وهي تقوى الرب.. فقال:{يا أيها الناس اتقوا ربكم}[1])(1). فكان افتتاح سورة النساء بذكر بدء الخلق والولادة:{الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ}[1] وختمت بأحكام الوفاة:{إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ...}[176] ومما ناسب هذا الختام ما جاء في أوائل السورة من قوله تعالى:{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}[7–10] تمهيد لتفصيل الفرائض لما سيأتي من قوله:{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ...}[11] حيث تتنزل هذه الآية:(يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين...} منزلة البيان والتفصيل لقوله:(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون نصيباً مفروضا) وهذا المقصد الذي جعل قوله:(للرجال نصيب...وللنساء نصيب) بمنزلة المقدمة؛ فلذلك كانت جملة (يوصيكم) مفصولة لأن كلا الموقعين مقتضٍ للفصل. وعدل سبحانه عن الأمر إلى الإيصاء:(يوصيكم) لأنه أبلغ وأدل على الاهتمام وطلب الحصول في أولادكم أي توريثهم. وهذا إجمال تفصيله فيما بعده من قوله:(للذكر مثل حظ الأنثيين... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)(2). فما أشد ختام هذه السورة (بإحاطة العلم لِمَا دلّ عليه أولها من تمام القدرة. فكان آخرها دليلاً على أولها لأن تمام العلم مستلزم لشمول القدرة)(3).

الإجمال والتفصيل في سورة النساء:

- **في العبارة الواحدة:**

الإجمال	التفصيل	رقم الآية
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ	وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ	1
آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا	وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ..وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ	11–12
أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ	فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا	

(1) التفسير الكبير 134/9، وينظر: مباحث في التفسير الموضوعي 77.
(2) ينظر: إرشاد العقل السليم 489/2، والتحرير والتنوير 44/4.
(3) نظم الدرر 383/2.

الإجمال	التفصيل	رقم الآية
فَضْلِهِ		54
لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا	95
إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ	وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا	163

- الإجمال والتفصيل بين الآيات على سبيل الإيجاز:

الإجمال	التفصيل
وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ [2]	وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا... كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا [6]
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا [2]	إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[10]
وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ [127]	وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا [3]

- علاقة سورة النساء بالسور الأخرى إجمالاً وتفصيلا:

بعد إجمال الميراث في سورة البقرة بقوله:{وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ}[البقرة:233] فصل التعبير القرآني هذا الإجمال أبلغ تفصيل في سورة النساء:{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا...}[7] والكلام هنا استئناف ابتدائي؛ لما سبق من قوله:(وآتوا اليتامى أموالهم...)[2] وقوله:(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ...) تفصيل للعموم المفهوم من قوله:{مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ} فجاء هذا البدل مفصلاً لحالتيه من الكثرة والقلة، وجاء هذا التفصيل بمثابة المقدمة لتفصيل لاحق للميراث وأحكامه:{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ...}[11] وقوله:{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}[12] وقوله:{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ}[33] وقوله:{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ

وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[176](1).

وقوله:{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[39-40] وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ}[43] ذلك أن هذه الآيات في سورة النساء ذكرت تفرعات العبادة من إيمان وإنفاق وصلاة.

وفي تكذيب الكفار وأهل الكتاب وإبطال أمانيهم، جاء الخطاب القرآني في سورة النساء على صورة الإجمال، بقوله:{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}[123]. وفي تفصيل هذا المجمل نجد فحوى أماني المشركين من العرب في قوله تعالى:{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}[سبأ:35] وقوله تعالى عنهم:{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}[الانعام:29]، وفي تفصيل أماني أهل الكتاب، قوله تعالى عنهم:{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}[البقرة:111] وقوله تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}[المائدة:18](2).

وفيما يأتي بيان في علاقة سورة النساء بغيرها من السور إجمالاً وتفصيلا:

الاجمال	التفصيل
فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ [النساء:25]	الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النور:2]
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ [النساء:47]	وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ [البقرة:65]
فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ [النساء:160]	وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [الانعام:146]

إجمال البقرة	تفصيل النساء
وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ [221] ذكر نكاح الأمة مجملاً	وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ

(1) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن 35.
(2) ينظر: أضواء البيان 248/1.

إجمال البقرة	تفصيل النساء
	وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ... [25-26] حيث فصل شروطه
ذكر الصداق مجملاً: وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا [229]	وفصله هنا: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا [20-21]
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ [218]	لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً [95-96]
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ [23]	أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [82]، لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا [166].
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [24]	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ [56]
<u>إجمال البقرة</u>	<u>تفصيل النساء</u>
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [25]	وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا [57]، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا [124]، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [175]

الخاتمة

وأبرز النتائج

– إن العبارة القرآنية الموجزة قد لا يكون تفصيلها في موضع واحد من السورة وإنما في سور أخرى. وهذا من أسباب دراسة أكثر من سورة واحدة إجمالاً وتفصيلاً.

– إن إجمال الشيء في كلام العرب موجود؛ ولكن القرآن الكريم يتخذ صفة (العموم) كظاهرة من أول القرآن إلى آخره.

– ارتباط مفاصل القرآن على أنه وحدة واحدة أسلوباً ومنهجاً.

– كثيراً ما نجد أن خاتمة سورة ما تأتي على صورة مجملة وتفصيلها السورة بعدها.

– الترابط الموجود بين السور له أشكاله فقد تكون خاتمة السورة جاءت على الإجمال في حكم أو معنى من المعاني قد يكون تفصيله في السورة اللاحقة فهذه ظاهرة بارزة في القرآن الكريم ظهرت من خلال الدراسة لهذه السور الطويلة.

– إن إرجاع آخر الأمر إلى أوله وبالعكس هو نوع من التأكيد والبيان وتعليق الفكرة في الذهن فَهْماً، فمن مواصفات الاستهلال أن يكون مجملاً موحياً بالفكرة ملمحاً لها ثم يكون الموضوع بعدها مفصلاً على غرار تلك الفكرة وذاك الاستهلال ثم تعود السورة في نهاياتها لتقول بأن الذي كان شرحاً وتفصيلاً في السورة إنما كان على وفق ما استهلت به وأن هناك استطراداً وهناك أمثلة ومعاني يستطيع الواقف على بعض أسرار ترتيب المعاني في القرآن أن يدرك شيئاً من العلاقات بين الآيات والسور.

– لا يمكن فهم معاني بعض الآيات في موضعها الذي جاءت فيه وإنما بالنظر فيما له صلة بهذا المعنى في عموم القرآن، وهذا يؤكد وحدة القرآن ألفاظاً ومعاني.

– إن الأسلوب القرآني أسلوب واحد وإن تنوعت أشكال التعبير في سورة طويلة وقصيرة فالقرآن نسمعه على صوت فيه غرابة وإن اختلفت الأساليب الفنية بين عبارة طويلة تنتهي بمد كما في (يعلمون، يوقنون) أو قصيرة كما في (القمر، الفجر، وليال عشر....) [الفجر:1–2]. أو غير ذلك.

– إن ترتيب سور القرآن يؤكد على أن سوره مرتبة في المصحف الشريف على صور من الترابط فنزولها من اللوح المحفوظ وأمر الرسول صلى الله عليه وآله بأن توضع هذه الآية مع آية مناسبة لها وإن اختلف الزمان والمكان فهذا أمر معجز غاية الإعجاز وقد تأكد ذلك من خلال هذه الدراسة التي بنيت على تواصل الآيات والسور التي درسناها فليس هناك من فجوة بين سورة وسورة أو آية وآية،وكذلك باقي سور القرآن كلها.

– كانت دراسة فواتح السور مختصرة على علاقتها مع الخاتمة أو مع فاتحة السورة السابقة أو اللاحقة، وأن فاتحة السورة تضمنت الفكرة الأم لمجموع السورة، وربما تكون الخاتمة أيضاً هي خلاصة للسورة وكل ذلك جاء بأسلوب لا يقطع على القارئ وحدة الفكرة أو المعنى وكأن النسج القرآني لا يسمح لأن تكون له حدود تفصله عن مجمل النص.

– هناك تنبيهات أسلوبية في القرآن الكريم على صور الحروف سواء كانت الحروف المفتتحة بها السور أو غيرها في حذفها في موضع وذكرها في موضع آخر أو أُكِّدَ بها في موضع ولم يُؤَكد بها في موضع آخر وربما تكرر هذا في السورة لينبه على أن هناك موضعا ما يراد منه الإيجاز وأن موضعا آخر جاء على صورة من التفصيل والبيان، وهذا ما لاحظناه في السور الطوال محل البحث القائمة على أداء تفصيلي.

– لكل سورة أسلوبها الخاص بها من جهة والمرتبط مع أسلوب القرآن كله في نغمته العامة من جهة أخرى فضلاً عن ارتباط المعاني بين السور ولا يتوضح أسلوب السورة إلا بقراءة تفصيلية للسورة.

– من فوائد هذه الدراسة ونظرتها لعموم سور القرآن إجمالاً وتفصيلا قابليتها على تجزئة موضوعات قرآنية لسور كاملة في هذا المجال وتنمية كل مبحث على أن يكون بحثاً أو كتاباً ينتفع به الناس، فيمكن لطلبة الدراسات القرآنية واللغوية أن يكتبوا في ذلك بحوثاً مختلفة ضمن أساليب القرآن وبلاغته.

المصادر

1. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ت911هـ، تح: فؤاد احمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2007م.
2. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، ت951هـ، دار الفكر(د.ت).
3. أسئلة بيانية في القرآن الكريم: د. فاضل صالح السامرائي، مكتبة الصحبة، الشارقة، ط 1، 2008م.
4. الأساس في التفسير: سعيد حوى، دار السلام، ط3، 1412هـ–1991م.
5. أسرار ترتيب سور القرآن: جلال الدين السيوطي ت 911هـ، تح: رضا فرج الهمامي، المكتبة العصرية – بيروت، ط1، 2003م.

6. أسرار التكرار في القرآن المسمى (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، تاج القرّاء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ت505هـ، تح: عبد القادر أحمد عطاء، دار بو سلامة.
7. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: محمد الشاوش المؤسسة العربية للتوزيع، تونس ط1، 2001م.
8. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي الموريتاني المالكي الأفريقي، ت1393هـ، تح: الشيخ صلاح الدين العلايلي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
9. الأمثال السائرة في القرآن: د. محمد عبد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة العاشرة، ع25، 1995م.
10. بدائع الفوائد: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تح: جابر بن فتحي بن إبراهيم، وفارس بن فتحي بن إبراهيم، دار ابن الهيثم، ط1 (د.ت).
11. البرهان على إعجاز القرآن: عبد العزيز الشناوي، مكتبة الإيمان، مصر، ط1، 1999م.
12. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت794هـ، تح: مصطفى عبد القادر عطاء، دار الفكر ـ بيروت، 2001م.
13. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ت817 هـ، تح: أ. محمد علي النجار، القاهرة، 1385هـ-1965م.
14. تأملات في سورة الفاتحة: د. حسن محمد باجودة، دار بو سلامة، تونس (د.ت).
15. تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت276هـ، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، 1971م.
16. التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت 460 هـ، تح: أحمد حبيب العاملي، مكتبة الإعلام الإسلامي، ط 1، 1209هـ.
17. التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور ت1393هـ، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت، ط1، 2000م.
18. التعبير الفني في القرآن: د. بكري الشيخ أمين، دار الشروق، ط3، 1979م.
19. التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد ـ بيت الحكمة، 1986- 1987م.
20. التعريض في القرآن: د. إبراهيم محمد الخولي، دار البصائر ـ القاهرة، ط1، 2004م.
21. تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت745هـ، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معرض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، -2001م.
22. التفسير البياني للقرآن الكريم: د. عائشة عبد الرحمن، (بنت الشاطئ)، دار المعارف، مصر، ط 4، 1962م.
23. تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): الإمام القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله أبو عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ت791هـ، تح: الشيخ عبد القادر عرفان ـ دار الفكر، 2005م.
24. تفسير جوامع الجامع، الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري، تح: مؤسسة النشر الإسلامي / قم، ط 1، 1418هـ.
25. تفسير الصافي، للفيض الكاشاني ت 1091هـ، تح: حسين الأعلمي، مكتبة الصدر ـ طهران، ط 2، 1416هـ.
26. تفسير العياشي، لأبي النظر محمد بن مسعود بن عياش المعروف بالعياشي، تح: السيد هاشم المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران.
27. تفسير القرآن العظيم: الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت 774هـ، تح: الشيخ شريف عبد الله، ومحمد علي، وأحمد عبد رب النبي، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1، 2005م.

28. تفسير القرآن الكريم: محمد شلتوت، دار القلم، ط4، 1966م.
29. تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن)، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت672هـ، دار الشعب ـ القاهرة.
30. التفسير القيم: الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحـ رضوان جامع رضوان، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1، 2005م.
31. التفسير الكبير أو مفاتح الغيب: الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين ابن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، ت604هـ، تحـ عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة (د.ت).
32. تيجان البيان في مشكلات القرآن: محمد بن أمين بن خير الله الخطيب العمري، ولد سنة 1151هـ، تح: حسن مظفر الرزو، ط.1
33. جواهر البيان في تناسب سور القرآن: أبو الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري، عالم الكتب ـ بيروت، 1986م.
34. دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ت471هـ أو 474هـ، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط3، 1992م.
35. ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان طه، القاهرة، 1958م.
36. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، ت1270هـ، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط2، 2005م.
37. زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي، ت597هـ، تح: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط2، 2002م.
38. شرح المعلقات العشر: القاضي أبو عبد الله الحسين بن احمد بن الحسين الزوزني، مكتبة الحياة، بيروت، 1983م.
39. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني، ت456هـ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ـ بيروت، ط 4، 1972م.
40. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي ابن محمد الشوكاني، ت1250هـ، تحـ، احمد عبد السلام، دار (الكتب العلمية ـ بيروت) (د.ت).
41. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية، 35، 2005م.
42. قطف الأزهار في كشف الأسرار: جلال الدين السيوطي، ت911هـ، وزارة المعارف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، 1994م.
43. كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحـ، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ـ بيروت، 1986م.
44. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبو القاسم أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحـ، عدنان درويش، ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة للنشر ـ بيروت، 1938م.
45. لسان العرب: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري، ت711هـ، تح: عامر احمد حيدر، وعبد المنعم خليل، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، 2004م.
46. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: د. فاضل صالح السامرائي، دار الفجر، بغداد، الأعظمية، 2008م.
47. مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى سالم، دار القلم، دمشق، ط5، 2007م.
48. مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، دار الملايين، بيروت، ط1، 1977م.

49. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي، ت637هـ، تحـ، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1939م.

50. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت546هـ، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط2، 2007م.

51. مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع: جلال الدين السيوطي، ت911هـ، تح: محمد يوسف الشربجي، مجلة الأحمدية ع 4، جمادى الأولى، أغسطس 1999م.

52. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1983م.

53. مقاييس اللّغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ـ بيروت، ط2، 1999م.

54. ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ت708هـ، تحـ سعيد الفلاّح، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط1، 2009م.

55. مناهل العرفان في علوم القرآن: الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، تحـ، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2004م.

56. من بديع لغة التنزيل: د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، بيروت، ط1، 1984م.

57. من بلاغة القرآن: د. أحمد أحمد بدوي، دار النهضة، مصر، الفجالة، 1977م.

58 النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت (د.ت).

.59 نظرة العجلان في أغراض القرآن: محمد كمال أحمد الخطيب، المطبعة العصرية، دمشق (د.ت).

60. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ت885هـ، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط3، 2006م.